الطريق

إلى الربَّانية

المعاني التربوية واللطائف الروحية التي أشار إليها ابن القيم رحمه الله في كتبه

تأليف

د. مشعل عبد العزيز الفلاحي



دمشق


الطريق
إلى الربَّانية



الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



المعاني التربوية واللطائف الروحية
التي أشار إليها ابن القيم رحمه الله في كتبه

تأليف
د. مشعل عبد العزيز الفلاحي









المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن المتأمل في تراث ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجد من المعاني الروحية، واللطائف الإيمانية، والإشارات السلوكية ما يجعله يترقى في مدارج العبودية إلى أقصى مدى، وحاجة السالك إلى الله تعالى لمثل هذه المعاني فوق كل حاجة، وقد منَّ الله تعالى عليَّ بقراءة تراث هذا الإمام، فنَفعني مما فيه نفعاً عظيماً، ورأيت أن الحاجة ماسَّة لاستخراج ما يتعلَّق بالجوانب الإيمانية والتربوية والسلوكية على وجه الخصوص، وذلك في خمسة من كتبه: (مدارج السالكين، والوابل الصيِّب، وإغاثة اللهفان، والجواب الكافي، وطريق الهجرتين)، وقد سردت لك هذه الفوائد مرتبة من كتبها كما ستراه، وأحسب أن هذه المعاني كفيلة ببناء الإنسان، ومعينة له على الطريق إلى الله تعالى، ومترقية به في مدارج العبودية، وواصلة به إلى أمانيه.

المؤلف







كتاب
مدارج السالكين







من علامات كمال الإنسان

فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمَّل قوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه؛ فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتمَّان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما، لذا كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما تُنال به المطالب العالية ويَخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، وموصلهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تُقتبس إلا من مشكاته ولا تُستثمر إلا من شجراته.

لماذا نسأل الله تعالى الهداية ونحن مهتدون؟

ومن هنا يُعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فِعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نَهتدي إلى تفاصيله فأمرٌ يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام، وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه.

من أسباب ثبات العبد على صراط جهنم

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالطرف، ومنهم من يمرُّ كالريح، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو

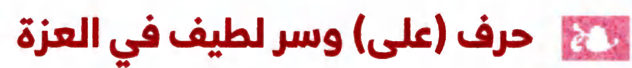


حبواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجَنَبَتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

النعمة المطلقة ومطلق النعمة

وفي تخصيصه في سورة الفاتحة لأهل الصراط المستقيم بالنعمة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ما دلَّ على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمه، وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والنعمة من جنس الإحسان بل هي الإحسان، وإحسان الرب تعالى على البر والفاجر والمؤمن والكافر. وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون.



حرف (على) وسر لطيف في العزة

في أداة (على) في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ سرٌّ لطيفٌ، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى)، فتأمله فإنه سرٌّ بديع.

كيف يكون الإنسان مستعلياً على الحق والهدى؟

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟ قلت: لما فيه من استعلائه وعلوّه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوّه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يأتي بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه واختلاطه واندماجه فيه كقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [فصلت: ٤٥]، وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤] فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها إلى أسفل سافلين.



لطيفة في قوله تعالى: صراط الذين أنعمت عليهم

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزَّة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق، نبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق في آية أخرى، فهم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفقاء السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أنَّ رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه، فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

مثلان مضروبان لأثر الرفقة على حياة السالك إلى الله

وكلما استوحشت في تفرُّدك فانظر إلى الرفقاء السابق ذكرهم، واحرص على اللحاق بهم، وغضَّ الطرف عمَّن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وأضلُّوك، وقد ضربت لذلك مثلين فليكونا منك على بال، أمَّا الأول: فرجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها فعرض له في طريقه

شيطان من شـــياطين الإنس، فألقى عليه كلاماً يؤذيه فوقف وردَّ عليه وتماسكا، ولربَّما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة، أو كان الرجل أقوى من شـــيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشـــته عن الصف الأول وإدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفســـه، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفـــة وعلم زاد في الســـعي والجهد بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشـــتغل بمـــا هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء. والمثل الثاني: الظبي أشـــدُّ ســـعياً من الكلب، ولكنه إذا أحسَّ بـــه التفت إليه فضعف ســـعيه فأدركه الكلب وأخذه، والقصـــد: أنَّ في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرُّد، ويحثُّ على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنـــوت: (اللهُمَّ اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ) أي: أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

من أعظم وسائل إجابة الدعاء

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ونيله أشـــرف المواهب، فقد علَّم الله عباده كيفية ســـؤاله، وأمرهم أن يقدِّمـــوا بين يديه حمـــده والثناء عليـــه وتمجيده، ثم ذكـــر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسَّل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسَّـــل إليه بعبوديته، وهاتان الوســـيلتان لا يكاد يُردُّ معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم:



الأول في حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنَّك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ لقد سألَ الله تعالى باسمِهِ الأعظَمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»(١).

والثاني حديث أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إنِّي أسألك بأنَّ لكَ الحمد، لا إله إلَّا أنت، المنَّانُ، بديعُ السمواتِ والأرضِ، يا ذا الجَلالِ والإِكْرام، يا حَيُّ يا قيُّومُ، فقال: «**لَقَدْ سَأَلَ الله تعالى بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ**»(٢).

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل: «**اللهمَّ لكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَنْ فيهِنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ قيُّومُ السمواتِ والأرضِ ومَنْ فيهِنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ الحقُّ، ووعدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ، اللهمَّ لكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإليكَ حَاكَمْتُ، فاغفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ وأَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ ومَا أَعْلَنْتُ، أنتَ إِلهِي لا إلهَ إلَّا أنتَ**»(٣)، فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦١٩)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

من أراد أن تصدق رؤياه

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحرَّ الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي، ولينمْ على طهارة كاملة ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإنَّ رؤياه لا تكاد تكذب البتة، وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار؛ فإنَّه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين والأرواح الشيطانية، وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية.

شفاء الفاتحة لأمراض القلوب

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان، فأما اشتمالها على شفاء القلوب؛ فإنها اشتملت عليه أتمَّ اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: (فساد العلم وفساد القصد) فترتَّب عليهما داءان قاتلان، وهما (الضلال والغضب) فالضلال: نتيجة فساد العلم، والغضب: نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، وللهداية إلى الصراط المستقيم لا بدَّ من الشفاء من مرض الضلال، ولذا كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة، وذلك لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.



والتحقيق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسَّل من أجلها بأنواع الوسائل الموصلة إليها، كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات ـ الذين لا غاية لهم وراءها ـ وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم أي طريق كان من حق أو باطل.

مرضان عظيمان وطريق السلامة منهما

يعرض للقلب مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: (الرياء، والكبر). فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عُوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ عُوفي من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المُنعَم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.



سورة الفاتحة وأثرها في شفاء القلوب والأبدان

وحُقّ لسورةٍ تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبيِّنه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه وفهمت عنه فهماً خاصاً اختصها به من معاني هذه السورة، وأمَّا تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة وما شهدت به قواعد الطب، ودلَّت عليه التجربة، فأما ما دلَّت عليه السُّنَّة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أنَّ ناساً من أصحاب النبي ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العرب فلم يقروهم ولم يضيِّفوهم، فلُدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منَّا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قَلَبَة، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك. فقال: «**مَا يُدْرِيكَ أَنَّها رُقْيَةٌ؟ كُلُوا واضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْم**»[1]، فقد تضمَّن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء، هذا مع كون المحل غير قابل، إمَّا لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو لأنَّهم أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً؟! فإنَّ مبنى الشفاء والبرء على دفع الضدِّ بضدِّه، وحفظ الشيء بمثله، فالصحة تُحفظ بالمثل والمرض يُدفع

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).



بالضد، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ولم تقوَ نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء. فهنا ثلاثة أمور: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلَّف واحدٌ منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء، ولا بدَّ بإذن الله تعالى. ومن عرف هذا كما ينبغي تبيَّن له أسرار الرُّقى وميَّز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرُّقى، وتبيَّن له أن الرقية براقيها وقبول المحل كما أنَّ السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع. وأما شهادة التجارب بذلك؛ فهي أكثر من أن تُذكر، وذلك في كل زمان، وقد جرَّبت أنا من ذلك في نفسي وغيري أموراً عجيبة ولا سيَّما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تنقطع الحركة منِّي، وذلك في أثناء الطواف وغيره فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنَّ حصاةً تسقط، جرَّبت ذلك مرات عديدة، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه، فأجد به النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين، والله المستعان.

من أفضل ما يُسأل به الرب

من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبيُّ ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال **«يا مُعَاذُ، والله إنِّي لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقولَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ**



أعنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ»[1]، فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضادُّه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأمَّلها.

أنفع الدعاء

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه: تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إجابة الله تعالى للدعاء ليس كرامة

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وليتأمَّل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبَّته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً، لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، فيظنُّ بجهله أنَّ الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنَّه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٧، ٩٨٥٧).



لا تسأل الله شيئاً عاقبته مُغيَّبة عنك

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبتان عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بداً فعلِّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدِّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره. وإذا أعطاك الله تعالى ما أعطاك بلا سؤال تسأله، فسل الله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظنَّ أنَّ عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكنَّ عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧] أي ليس كل من أعطيته ونعَّمته وخوَّلته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ ولكنه ابتلاء منِّي وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيَّقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منِّي له: أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟



أثر توكل العبد على الله تعالى

ولو توكَّل العبد على الله تعالى حقَّ توكُّله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله، فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟ قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرُّده بالخلق والتدبير والضرِّ والنفع والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينةً به وثقةً به، ويقيناً بكفايته لما توكَّل عليه فيه، وأنه مليٌّ به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة، وهما مليَّان بهما، فانظر في تجرُّد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همِّه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكِّل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. والحسب الكافي؛ فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة.

متى يكون العبد متحققاً بإياك نعبد؟

لا يكون العبد متحققاً بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أولهما: متابعة الرسل عليهم السلام، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة هم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقةً؛ فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله،



وحبهم لله، وبغضهم لله؛ فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاءَ الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمِّهم، بل عدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فالعمل من أجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضرِّ والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهلٍ بشأنهم وجاهلٍ بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبَّه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

أفضل العبادة

وأفضل العبادة: العمل على مرضاة الله تعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته؛ فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإنْ آلَ إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن، وفي وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في تأديتها على أكمل وجه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع وإن بَعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته وإعانته وإيثار ذلك على أورادك وخلواتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيَّةُ القلب والهمة على تدبُّره وتفهُّمه حتى كأنَّ الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبُّره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعيَّة قلب مَنْ جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرُّع والدعاء والذكر دون الصوم المُضْعِف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد والخلوة والاعتكاف فيه دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنَّه أفضل من الأقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.



والأفضل في وقــت مرض أخيك المسـلم وموتــه: عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيَّتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتــك بهم، دون الهرب منهم، فــإنَّ المؤمن الذي يخالط الناس ويصبــر على أذاهم أفضل مــن الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه، والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنَّه إذا خالطهم أزاله أو قلَّله فخلطتهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشــتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفتــه ومقتضاه، وهؤلاء هم أهل التعبُّد المطلق، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبُّدٍ بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبــده عليها، فهو لا يــزال متنقِّلاً في منــازل العبودية، كلما رُفعت لــه منزلة عمل على ســيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهــم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدِّقين المحســنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعيَّة وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيِّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيها لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.



فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقاً القائم بهما صدقاً، ملبسه ما تهيَّأ، ومأكله ما تيسَّر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبَّده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حُرٌّ مجرَّدٌ، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنَّى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلَّت مضاربه، يأنس به كلُّ محقٍّ، ويستوحش منه كلُّ مُبْطِلٍ، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلُّها منفعةٌ، حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهِكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البَيْنِ، وتخلَّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلَّى عنها، فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظمَ أُنسَهُ بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان وعليه التكلان.

أول منازل العبودية

أول منازل العبودية: (اليقظة) وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ والله بالفلاح، وإلَّا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمَّر لله بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سبي منها.

فحيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإنَّها ... مَنَازِلُكَ الأُولَى وفِيْهَا المُخَيَّمُ
ولَكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ



فأخذ في أهبة السفر فانتقل إلى منزلة العزم، وهو العقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل، وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

تمحيص العبد في الدنيا

تمحيص العبد يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإن محَّصته هذه الأربعة وخلَّصَتْهُ كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يبشِّرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢] وإن لم تفِ هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً وهي العامة الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، وهذا هو الاستغفار النافع لا استغفار من في يده قدح السكر وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب، وهذا إمَّا لعظم الجناية، وإمَّا لضعف الممحَّص، وإما لهما، مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء:



أحدها: صلاة أهل الإيمـان الجنازة عليه، واسـتغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثانـي: تمحيصـه بفتنة القبـر، وروعـة الفتَّـان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدِي إخوانُه المسـلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقـراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلـك له، وقد أجمـع الناس على وصـول الصدقة والدعاء، فإن لم تفِ هـذه بالتمحيص مُحِّص بيـن يدي ربه في الموقف بأربعة أشـياء: أهوال القيامة، وشـدَّة الموقف، وشـفاعة الشـفعاء، وعفو الله ﷻ، فإن لم تفِ هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بدَّ من دخول الكير، رحمةً في حقِّه، ليتخلَّص ويتمحَّص ويتطهَّر في النار، فتكون النار طهرةً له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلَّته وشدَّته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصفا ذهبه، وصار خالصاً طيباً، أُخرج من النار، وأُدخل الجنة.

متى تعظم المخالفة في قلب العبد

ومن كملت عظمة الحق في قلبـه عظمت عنده مخالفته؛ لأنَّ مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه، ومن عرف قدر نفسـه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة، اشـتدَّت حاجتها إليه، وعظمت عنده جناية المخالفة، وإذا عرف حقارتها مع قدر مـن خالفه، عظمـت الجناية عنده فَشَـمَّر في التخلُّص من الجناية التي تلحق به.



مدار السعادة

ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطّل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يُرجى معه فلاحٌ البتة. والله تعالى أخبر أنَّه إنَّما تنفع الآيات والنذر لمن صدَّق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالى أنَّ أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدِّقون بالوعيد الخائفون منه، فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

مراتب الأعمال وأثرها في زيادة الأحوال

وكل سالك على حسب علمه بمراتب الأعمال ونفائس الكسب تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه، وكذلك تفقد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه، هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها؟ فبحسب إجابة الداعي سرعةً وإبطاءً تكون زيادته ونقصانه، وكذلك صحبة أرباب العزائم المشمِّرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان، والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض، وما على العبد أضر من

ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطِّن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

من أعرض عن حق وقع في باطل

كلُّ مَنْ أعرض عن شيءٍ من الحق وجحده وقع في باطل مقابل لما أعرض عن الحق وجحده ولا بد، حتى في الأعمال: مَنْ رغب عن العمل لوجه الله تعالى وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده فابتُلي بالعمل لمن لا يملك شيئاً من ذلك، وكذلك مَنْ رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله تعالى ابتُلي بإنفاقه لغير الله تعالى وهو راغم، وكذلك مَنْ رغب عن التعب لله تعالى ابتُلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بد، وكذلك مَنْ رغب عن الهدى بالوحي ابتُلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان ووسخ الأفكار.

محاسبة النفس

وينبغي على العبد أن يحاسب نفسه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدَّم لغدٍ، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على



ذلـك، والنظر هل يصلـح ما قدَّمـه أن يلقى الله بـه أو لا يصلح، والمقصود من هذا النظر ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عـذاب الله ويبيِّض وجهه عند الله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسـبوا أنفسـكم قبل أن تُحاسَبوا، وزنوا أنفسـكم قبل أن تُوزَنوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر»، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: على من لا تخفى عليه أعمالكم.

سوء الظن بالنفس

وينبغي أن يسـوء ظنُّ الإنسـان بنفسـه؛ لأن حسنَ الظنِّ بالنفس يمنـع من كمال التفتيش، ويلبِّس عليه، فيرى المسـاوئ محاسـن، والعيوب كمالاً، فـإن المحبَّ يرى مسـاوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخْط تُبدي المساويا

ولا يسيءُ الظنَّ بنفسـه إلّا من عرفها، ومن أحسن ظنَّه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

الفرق بين نعمتين

وينبغـي أن يُفـرِّق بين النعمـة التي يرى بها الإحسـان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين التي يرى بها الاسـتدراج، فكم من مسـتدرَجٍ بالنعم وهو لا يشعر، مفتونٍ بثناء الجهال عليه، مغرورٍ بقضاء الله حوائجه وستره عليه!



حال الإنسان بين المنن والحجج

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي مِنَّةٌ وإلَّا فهي حجَّة، وكل حال صَحِبَهُ تأثيرٌ في نصر دينه والدعوة إليه فهو مِنَّة منه وإلَّا فهو حجَّة، وكل مالٍ اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو من منَّة الله تعالى عليه وإلَّا فهو حجَّة، وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوعٌ للربِّ، وذلٌّ وانكسارٌ، ومعرفةٌ بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق، فهو منَّة وإلَّا فهو حجَّة، وكل بصيرة وموعظة وتذكير، وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان، فهي منَّة وإلَّا فهي حجَّة، وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد، فهو مِنَّة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه، فليتأمَّل العبد هذا الموضع العظيم الخطير، ويميِّز بين مواقع المنن والمحن والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواصِّ الناس وأرباب السلوك ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٦].

الرضا بالطاعة من رعونات النفس

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها



لسـيده، وقد أمر الله تعالى وفده وحُجَّاج بيته بأن يسـتغفروه عقيب إفاضتهـم من عرفـات، وهـو أجـلُّ المواقـف وأفضلهـا، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقـرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: «مَدُّوا الصلاةَ إلى السَّحرِ ثمَّ جلسوا يستغفرون الله ﷻ»، وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً، ثم قال: «اللهمَّ أنتَ السَّلامُ ومِنْكَ السَّلامُ تَبارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ»، وأمَرَهُ الله تعالى بالاسـتغفار بعد أداء الرسـالة والقيام بما عليه مـن أعبائها، وقضاء فرض الحـج واقتراب أجله، فقال في آخر سـورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

التعيير بالذنب

التعيير بالذنـب فيه من صَوْلَـةِ الطاعـة، وتزكية النفس، وشـكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأنَّ أخاك باء به، ولعلَّ كَسْـرَتَه بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلُّص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكِسَ الرأسِ خاشـع الطرف منكسر القلب أنفعُ له، وخيرٌ من صولة طاعتك وتكثُّرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي مـن رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلَّ من مقت الله! فذنب تَذِلُّ بـه لديه أحبُّ إليه من طاعه تدلُّ

بها عليه، واحذر أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل، ولأن ضحكت وأنت معترف خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ، وأنين المذنبين أحبُّ إلى الله من زَجَلِ المُسَبِّحين المُدِلِّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر، فله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطّلع عليه الكرام الكاتبون، وقد قال النبي ﷺ: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُقِمْ عَلَيْهَا الحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ**»[1]، أي: لا يعيِّر، من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فإن الميزان بيد الله والحكم لله، فالسوط الذي ضُرب به هذا العاصي بيد مقلِّب القلوب، والقصد إقامة الحدِّ لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كَرَّاتِ القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله. وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلةً: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ: «**لَا وَمُقَلِّبَ القُلُوبِ**»[2]، وقال: «**ما مِنْ قلبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ عز وجل إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ**» ثم قال: «**اللهُمَّ مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»[3]، «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧).

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٦٩١)، وابن ماجه (١٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).



منزلة التوبة

منزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل بها واصطحبها معه ونزل بها، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثمَّ علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبَّبِ بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالتَّرجِّي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

الخذلان

أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يَكِلَكَ الله إلى نفسك، ويخلِّي بينك وبينها، والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك.

الفرح بالمعصية

الفرح بالمعصية دليل على شدَّة الرغبة فيها، والجهل بقدر مَنْ عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غَطَّى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا



والحزن مخالط قلبه، ولكنَّ سكرَ الشـهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلا قلبه من هذا الحزن واشـتدت غبطته وسـروره، فليتَّهِم إيمانه، وليبكِ على مـوت قلبه، فإنه لو كان حيـاً لأحزنه ارتكابه للذنب، وأغاظه، وصعب عليـه، ولأحَسَّ القلـب بذلك؛ فحيث لم يحسَّ به فما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ، وهذه النكتة في الذنب قلَّ من يُهتدى إليهـا أو ينتبه لهـا، وهي موضع مخوف جـداً يؤدي إلى الهلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء: خوفٍ من الوفاة عليه قبل التوبة، وندمٍ على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشميرٍ للجدِّ في استدراكه.

من موجبات التوبة الصحيحة

من موجبات التوبة الصحيحة: كَسْرةٌ خاصَّةٌ تحصل للقلب لا يشـبهها شـيء، ولا تكون لغيـر المذنب، لا تحصـل بجوعٍ ولا رياضةٍ، ولا حبٍّ مجرَّدٍ، وإنما هي أمرٌ وراء هذا كلِّه، تكسـر القلبَ بين يدي الربِّ كسـرةً تامةً قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقَتْه بين يدي ربِّه طريحاً ذليلاً خاشـعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيِّده، فأُخذ فَأُحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدّاً، ولا عنه غناءً، ولا منه مهرباً، وعلم أنَّ حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فـي رضاه عنه، وقد علم إحاطة سـيِّده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبِّه لسـيِّده، وشـدَّة حاجته إليه، وعلمه بضعفِهِ وعجزِهِ وقوةِ سـيِّده، وذُلِّه وعزِّ سـيِّده، فيجتمع من هذه الأحوال كسـرةٌ وذلَّةٌ وخضوعٌ، ما أنفعها للعبد، وما أجـدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها! وما أقربه بها من سيِّده! فليس شيء أحبَّ إلى



سيِّده من هذه الكسـرة والخضوع والتذلُّل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فلله ما أحلـى قوله في هذه الحال: أسـألك بعـزِّك وذلِّي إلا رحمتني، أسـألك بقوتك وضعفي وبغناك عنِّي وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سـيِّد سـواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسـألك مسألة المسـكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليـل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سـؤال من خضعت لك رقبتـه، ورغم لك أنفه، وفاضت لـك عيناه، وذلَّ لك قلبـه، فهذا وأمثاله مـن آثار التوبة المقبولة، فمن لـم يجد ذلك في قلبه فليتَّهِـم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعـب التوبة الصحيحة بالحقيقة! وما أسـهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشـيءٍ أشقَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الكبائر الخفية

وأكثر الناس من المتنزِّهين عن الكبائر الحسية والقاذورات في كبائر مثلِها أو أعظمَ منها أو دونَهـا، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنـوبٌ ليتوبـوا منها، فعندهـم مـن الإزراء على أهـل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم ومنَّتِهم على الخلق بلسـان الحال، واقتضاء بواطنهم تعظيم الخلق لهم على طاعتهم اقتضاءً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله، وما يبعدهم عن بابه أكثر من كبائر أولئك، فـإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ليكسر بها نفسـه ويعرفه قدره ويُذِلَّه بها ويُخرِجَ



بها صولةَ الطاعات من قلبــه، فهي رحمةٌ في حقِّــه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائــر بتوبةٍ نصوحٍ وإقبــالٍ بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقِّهم، وإلَّا فكلاهما على خطرٍ.

دفع القدر بالقدر

ودفع القدر بالقــدر نوعان: أحدهما دفــع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولمَّا يقع، بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه، الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واســتقر بقدر آخر يرفعــه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قــدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإســاءة بقدر الإحســان. فهذا شــأن العارفين وشــأن الأقدار، لا الاستسلام لها وترك الحركة والحيلة، فإنَّه عجز.

المقصود من التوبة

ينبغي أن يكون مقصود العبد من التوبة تقوى الله، وهو خوفه وخشــيته والقيام بأمره واجتناب نهيه، فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصيته على نور من الله، يخاف عقــاب الله لا يريد بذلك عزَّ الطاعــة، فإن للطاعة وللتوبة عزّاً ظاهراً وباطناً، فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة، فمــن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة، فالشأن في التفريق في الأوامر بين حظِّك وحقِّ ربك علمــاً وحالاً، وكثيــر من الصادقيــن قد يلتبــس عليهم حال



نفوســـهم في ذلك، ولا يميِّزه إلا أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

إذا أذنب الإنسان، فهل ينسى الذنب أو يتذكره؟

إذا أذنب الإنسان، فهل الأولى له نسـيان ذلك الذنب أو دوام ذكره؟ والصواب: التفصيل في هذه المسألة وهو أن يقال: إذا أحسَّ العبد من نفســه حال الصفاء غَيْماً من الدعوى ورقيقةً من العُجب ونســيان المنة، وخطفته نفســه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع لــه، وإن كان في حال مشــاهدته منَّةَ الله عليه وكمال افتقاره إليه وفنائه به، وعدم استغنائه عنه في ذرَّةٍ من ذرَّاته، وقد خالط قلبه حال المحبة والفرح بالله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود ســعة رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات، فنســيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع، فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك، ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعدُ مما بين الســماء والأرض، وهذا من حسد الشيطان له، أراد أن يحُطَّه عن مقامه، وسَــيْرِ قلبــه في ميادين المعرفــة والمحبة والشوق، إلى وحشة الإساءة وحصر الجناية، فالأول يكون شهوده لجنايتــه منَّة من الله منَّ بهــا عليه ليؤمِّنه بها مــن مقت الدعوى وحجاب الكبرِ الخفيِّ الذي لا يشــعر به، فهــذا لون وهذا لون، وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة، وبالله التوفيق، وهو المستعان.



صاحب البصيرة الناتجة من الخطيئة

وقوع الخطيئة من العبد مؤذن باطلاعه على رياضٍ مونقةٍ من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة التي يضيق عن نطاقها الكَلِم.

من تلك الرياض: أن يعرف العبد عزَّتَه في قضائه، وهو أنه تعالى العزيز الذي يقضي بما شاء، وأنه لكمال عزَّته حَكَمَ على العبد وقضى عليه بما يشاء، وأنه لكمال عزَّته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلَّب قلبه، وصرَّف إرادته على ما يشاء تعالى، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريداً شائياً لما شاءه منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، وغاية المخلوق أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبدُ عزَّ سيِّده ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن تلك الرياض: أن يعرف أنه مُدَبَّر مقهور ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد.

ومن تلك الرياض: أن يعرف برَّه به سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه، وهذا من كمال برِّه، ومن أسمائه (البَرُّ)، وهذا البِرُّ من سيِّده من



كمال غناه وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن ذكر الخطيئة، فيبقى مع الله تعالى، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته.

ومن تلك الرياض: شهوده حلم الله تعالى في إمهاله حال الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحْدِث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم)، ومشاهدة صفة (الحلم)، والتعبد له بهذا الاسم.

ومن تلك الرياض: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدَّم من الاعتذار، فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره، ومحبةً أخرى لم تكن حاصلةً له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك، ولم يؤاخذك بها أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التوبة بعد الذنب لون، وهذا لون آخر.

ومن تلك الرياض: أن يكمِّل لعبده مراتب الذلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الله تعالى، فإنَّ النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنَّه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر.

متطلبات الكمال

وكمال الذلِّ لله تعالى والخضوع له هو لبُّ العبودية وسرُّها، وحصوله أنفعُ شيءٍ للعبد وأحبُّ شيءٍ إلى الله تعالى.



كل خير في النفس من فضل الله تعالى

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنَّها منبع كلِّ شرٍّ، ومأوى كلِّ سوءٍ، وأنَّ كلَّ خيرٍ فيها فضلٌ من الله، منَّ به عليها لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهذا الحب وهذه الكرامة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨]، عليم بمن يصلح لهذا الفضل، ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، حكيم فلا يضعه عند غير أهله، فيضيِّعه بوضعه في غير موضعه.

من آثار البصيرة بالنفس

ومن له بصيرة بنفسه وبصيرة بحقوق الله، وهو صادق في طلبه، لم يبقَ له نظر في حسنة البتة، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض والفقر الصرف، لأنه إذا فتَّشَ عن عيوب نفسه وعيوب عمله علِمَ أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشترَى بها النجاة من عذاب الله، فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله، فإن خلص له عملٌ وحالٌ مع الله وصفا له معه وقتٌ شَاهَدَ منَّة الله عليه به وفضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهل لذاك، فهو دائماً مشاهد لمنَّة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله، لأنه متى تطلَّبها رآها، وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد، ولذلك كان سيِّدُ



الاستغفار: «اللهم أنتَ ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لــكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبــوءُ بذنبي، فاغفر لــي، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ»[١].

العقبات السبع

ويَنبغي أن ينظر الإنسان إلى الآمر له بالمعصية، المزيِّن له فعلها، الحاضِّ له عليها، وهو شيطانه الموكل به، فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عدواً، وكمال الاحتــراز منه، والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من ســبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رســله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واســتراح، فإن اقتحم هذه العقبــة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان، طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إمَّا باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله ﷺ، وأنزل به كتابه، وإمَّا بالتعبُّد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً، والبدعتان في الغالب متلازمتان قلَّ أن تنفكَّ إحداهما

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٣).

عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوجَتْ بدعةُ الأقوالِ ببدعةِ الأعمالِ، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

والظفر به في عقبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمُّنها القولَ على الله بلا علم، ومعاداةَ صريح السنة، ومعاداةَ أهلها، والاجتهادَ على إطفاء نور السنة، وتوليةَ من عزله الله ورسوله، وعزلَ من ولّاه الله ورسوله، واعتبارَ ما ردَّه الله ورسوله، وردَّ ما اعتبره، وموالاةَ من عاداه، ومعاداةَ من والاه، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخَ صاحبُها من الدين كما تنسلُّ الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، أعمال الفسوق



والعصيان، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة، فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكَالَ له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أَوَما علمت بأنها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهوّن عليه أمرها حتى يصر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه؛ فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: «**إيَّاكم ومحقَّراتِ الذُّنُوبِ**»، ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود حتى جمعوا حطباً كثيراً، فأوقدوا ناراً، وأنضجوا خبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد، وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه[1].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٨٠٨).



من ترك السـنن إلى ترك الواجبـات، وأقلُّ ما ينالـه منه تفويته الأرباح والمكاسـب العظيمة والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوّت على نفسه شيئاً من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرةٍ تامَّةٍ، ونورٍ هادٍ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام علـى الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوِّض به التجار، فبخل بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشـغله بها عمـا هو أفضل منها وأعظم كسـباً وربحاً، لأنه لمَّا عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضلـه ودرجاته العالية، فشـغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجـوح عن الراجـح، وبالمحبـوب لله عن الأحـب إليه، وبالمرضيِّ عن الأرضى له.

ولكن أين أصحـاب هذه العقبـة؟ فهم الأفراد فـي العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقهٍ في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسـها ومرؤوسـها، وسـيِّدها ومسـودها، فإن في الأعمـال والأقوال سـيداً ومسـوداً ورئيسـاً ومرؤوسـاً وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح سـيد الاسـتغفار أن يقول



العبد: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت...**» الحديث[1]، وفي الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»[2].

ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حقٍّ حقَّه، فإذا نجا منها لم يبقَ هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلَّط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جدَّ العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمَّى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه، أحدها قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] سمَّى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدوَّ الله وعدوه، والله يحبُّ من وليِّه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٣).

(٢) جزء من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه المشهور: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة...»، أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للربِّ مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية، وقد شرع النبي ﷺ للمصلِّي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إنْ كانت صلاتُه تامَّةً كانتا ترغمان أنف الشيطان**»، وفي رواية: «**ترغيماً للشيطان**»[(١)]، وسماهما: المُرْغِمَتين.

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمد التبختر بين الصفَّين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السرِّ، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول. وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧١).



فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة، لا تستهزئ بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق.

لطيفة في كمال الشريعة

ولهذا قيل لبعض الأعراب وقد أسلم لما عرف دعوته ﷺ: عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلَّك على أنه رسول الله ﷺ؟ قال: ما أمر بشيءٍ فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيءٍ وقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلَّ شيئاً فقال العقل: ليته حرَّمه، ولا حرَّم شيئاً وقال العقل: ليته أباحه.

أثر المراقبة في الأعمال

إذا ألزمت نفسك تدبر القرآن ومعرفة المراد من كلام الله تعالى، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك والاستشفاء به، لم تكد تجاوز السورة أو الآية إلى غيرها، وإذا جمعت قلبك كله على ركعتين أعطيتها ما تقدر من الحضور والخشوع والمراقبة، لم تكد تصلِّي غيرهما إلا بجهد، ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله تعالى، كثير المؤنة قليل المنفعة دنيا وأُخرى، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه وإن كثر فمتعب غير مفيد، وهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة، فإن الله تعالى لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، وهكذا ينبغي أن يكون سائر



الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع؛ كالطواف وأعمال المناسك ونحوها، فإن انضاف إلى ذلك إحسان ظنه بها واستكثارها، وعدم التفاته إلى عيوبها ونقائصها والتوبةِ إلى الله تعالى واستغفارِهِ منها، جاءت تلك المفاسد التي ذكرها وما هو أكثر منها.

الدين كله استكثار من الطاعات

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحبُّ خلق الله إليه أعظمهم استكثاراً منها، وفي الحديث الصحيح الإلهي: «**ما تقرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افترَضْتُ عَلَيه، وَلا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتَّى أحبَّه، فإذا أحبَبْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بِهِ، وَبصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يسمَعُ، وبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، ولئِنْ سألَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استعاذَنِي لأُعِيْذَنَّه**»[1]، فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

العارف بالله

والعارف من صغرت حسناته في عينه، وعظمت ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلَّت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس، ومن عرف الله وحقه، وما ينبغي لعظمته من العبودية

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ما عدا قوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».



تلاشت حسناته عنده، وصغرت جداً في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها مــن عذابه، وأن الذي يليق بعزتــه ويصلح له من العبودية أمر آخر، وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها، لأنه كلما اســتكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بــالله والقرب منه، فشــاهدَ قلبه من عظمته ســبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله، ولو كانت أعمــال الثقلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دلَّ علــى أنه محجوبٌ عــن الله، غير عارفٍ به وبمــا ينبغي له، وبحســب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه لمشاهدته الحق ومستحقه، وتقصيره في القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبُّه الربُّ، ويرضاه من كل وجه، وإذا عُرف هذا فاســتقلال العبد المعصية عــن الجرأة على الله، وجهل بقدر من عصاه وبقــدر حقِّه، وإنما كان مبــارزة لأنه إذا استصغر المعصية واســتقلها، هان عليه أمرها وخفَّت على قلبه، وذلك نوع مبارزة.

العبد سائر لا واقف

فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلــى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشــريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طيٍّ، إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المســير، وفي الســرعة



والبطء ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، ولم يذكر واقفاً؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة، فمن لم يتقدَّم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

صاحب الوقفة له حالان

فإن قلت: كلُّ مجدٍّ في طلب شيءٍ لا بدَّ أن يعرض له وقفةٌ وفتورٌ، ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لا بدَّ من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليُجِمَّ نفسه ويُعِدَّها للسير، فهذا وقفته سير، ولا تضره الوقفة، فإن «لكل عمل شِرَّة ولكل شِرَّة فترة»، وإما أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذبٍ جذبه من خلفه، فإن أجابه أخَّره ولا بد، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الراكب له وعلى تأخُّره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووثب وجمَز واشتدَّ سعياً ليلحق الركب، وإن استمر مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرضَ بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى، حتى يردَّه إلى أسوأ منها وأنزل دركاً، فهو بمنزلة النكبة الشديدة عقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر منه وأصعب، وبالجملة فإن تدارَكَ الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوِّه وتخليصه، وإلا فهو في تأخر إلى الممات، راجعٌ القهقرى، ناكص على عقبيه أو مُولٍّ ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله.

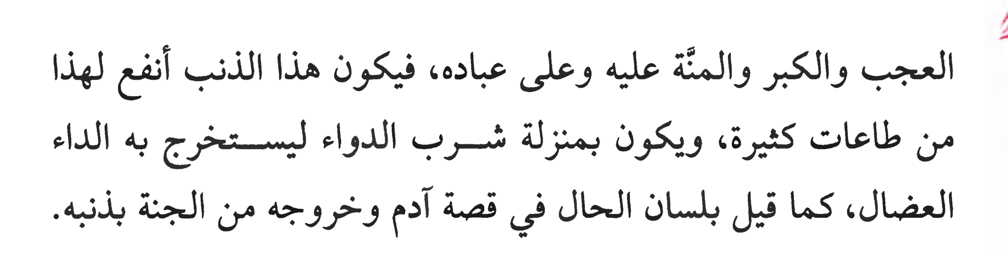


متى يكون الذنب أنفع للعبد؟

الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب، فلا يزال نصب عينيه إن قام وإن قعد، وإن مشى ذكر ذنبه، فيُحدِث له انكساراً وتوبةً واستغفاراً وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنَّةً، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه، خجلاً باكياً نادماً مستقبلاً ربه، وكلُّ واحدٍ من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولةً وكبراً وازدراءً بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله تعالى وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته الصائل بها المانِّ بها وبحاله على الله تعالى وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظِّموه ويرفعوه ويخضعوا له، ويجد في قلبه بَغْضَةً لمن لم يفعل به ذلك، ولو فتَّشَ نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً، ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظِّمه ويحترمه.

إذا أراد الله تعالى بعبده خيراً

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنبٍ يكسره به، ويعرِّفه قدره، ويكفي به عباده شرَّه، وينكِّس به رأسه، ويستخرج منه داء



العجب والكبر والمنَّة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال، كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه.

أثر ما يقترن بالمعاصي ويؤثِّر فيها

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له: وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرَّد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: انظر إلى موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده، فكسرها، وجرَّ بلحية نبيٍّ مثله وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله ويحبُّه ويكرمه ويدلِّله؛ لأنَّه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدوٍّ له، وصدع بأمره وعالج أمَّتَي القبط وبني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر، وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل



لموسى، وفرق بين من إذا أتى بذنبٍ واحدٍ، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنبٍ جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وَإِذَا الحَبِيْبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ   جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيْعِ

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكِّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وفرعون لمَّا لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

أشعة لا إله إلا الله

اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدِّد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس: مَنْ نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورها في قلبه كالكوكب الدُّريِّ، ومنهم مَنْ نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفةً وحالاً، وكلَّما عظم نور هذه الكلمة واشتدَّ، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل



إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئاً، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غِرَّةٍ وغفلةٍ لا بدَّ منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولَّى الباب ظهره.

حقيقة التوحيد

وليس التوحيد مجرَّد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرِّين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: **«إِنَّ الله حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ»**[(١)]، وقوله: **«لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٢) جاء نحوه في الحديث السابق عند مسلم (٥٤/٣٣).



الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب

فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أنَّ كلَّ موحِّدٍ له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقَّل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة، وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر وإيمان آخر، ولا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة، وجُعل من أهلها، وقريب من هذا: ما قام بقلب البغيِّ التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتدَّ به العطش يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم مَنْ ترائيه بعملها ما حملها على أن غرَّرت بنفسها في نزول البئر ومَلْءِ الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها وهو ملآن، حتَّى أمكنها، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً، فأحرقت أنوار هذا القدر من



التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغُفِرَ لها، فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافـل في غفلة من هذا الإكسـير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحـاس الأعمال قلبها ذهباً، والله المستعان.

طبائع النفوس

مِن الناس مَنْ نفسه كلبية: لو صادف جيفةً تُشبِعُ ألف كلب لوقع عليها وحماها من سـائر الكلاب، ونبح كل كلب يدنو منها، فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة، ولا يسمح لكلب بشيء منها، وهمُّه شبع بطنه من أي طعام اتفق، ميتة أو مُذَكى، خبيث أو طيب، ولا يستحيي من قبيح، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك، وإن منعته هرَّك ونبحك.

ومنهم من نفسه حمارية: لم تخلق إلا للكد والعلف، كلما زيد في علفه زيد في كده، أبكم الحيوان وأقله بصيرة، ولهذا مثَّل الله ﷻ به من حَمَّله كتابه، فلـم يحمله معرفةً ولا فقهـاً ولا عملاً، ومثَّل بالكلب عالم السـوء الذي آتاه الله آياته، فانسـلخ منها وأخلد إلى الأرض، واتبع هـواه، وفي هذين المثلين أسـرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم من نفسـه سَـبُعيَّة غضبيَّة: همَّته العـدوان على الناس، وقهرهـم بما وصلت إليه قدرتـه، طبيعته تتقاضـى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.



ومنهم من نفسه فأرية: فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره، تسبيحه بلسان الحال سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَات؛ كالحية والعقرب وغيرهما، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه، فيُدخِل الرجل القبر والجمل القدر، والعين وحدها لم تفعل شيئاً، وإنما النفس الخبيثة السمِّيَّة تكيفت بكيفية غضبية مع شدة حسد وإعجاب، وقابلت المعين على غرة منه وغفلة، وهو أعزل من سلاحه، فلدغته كالحية التي تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه، فإما عطب وإما أذى، ولهذا لا يتوقف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة، بل إذا وُصِف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه، لجهل المعين وغفلته وغرَّته عن حمل سلاحه كل وقت؛ فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح، كالحيَّة إذا قابلت درعاً سابغاً على جميع البدن، ليس فيه موضع مكشوف، فحقٌّ على مَنْ أراد حفظ نفسه وحمايتها أن لا يزال متدرعاً متحصناً لابساً أداة الحرب، مواظباً على أوراد التعوذات والتحصينات النبوية التي في القرآن والسنة.

ومن الناس من طبعه طبع خنزير: يمرُّ بالطيبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رجيعه قمَّه، وهكذا كثير من الناس، يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سقطةً أو كلمةً عوراء وجد بغيته وما يناسبها، فجعلها فاكهته ونقله.

ومنهم من هو على طبيعة الطاووس: ليس له إلا التطوُّس والتزيُّن بالريش، وليس وراء ذلك من شيء.



ومنهم من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان وأغلظه كبداً، ومنهم من هو على طبيعة الدبِّ أبكم خبيث، وعلى طبيعة القرد.

وأحمد طبائع الحيوانات طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً وأكرمها طبعاً، وكذلك الغنم، وكل من أَلِفَ ضرباً من ضروب هذه الحيوانات اكتسبَ مِنْ طبعه وخُلُقه، فإن تغذَّى بلحمه كان الشَّبَهُ أقوى، فإن الغاذي شبيهٌ بالمغتذي، ولهذا حرَّم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها، والله أعلم.

التوفيق والخذلان

قال رحمه الله تعالى: «أجمع العارفون بالله أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان أن يخلِّي بينك وبين نفسك»، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وفَّقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتمُّ حمدٍ وأكمله، ولم يمنع العبد شيئاً هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله، فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقَّه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نَفَسٍ وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلَّى عنه طرفة عينٍ لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرَّت سماء إيمانه على



الأرض، وأن المُمسِك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه فهجِّيرى قلبه ودأب لسانه: «يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك، يا مصرِّف القلوب، صرِّف قلبي إلى طاعتك»، ودعواه: «يا حيُّ يا قيوم، يا بديعَ السَّموات والأرضِ، يا ذا الجلال والإكرام، لا إلٰه إلا أنت، برحمتك أستغيثك، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحدٍ من خلقك».

آثار الحسنات والسيئات

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة، لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة لا نسبة لها إليها، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازاتٍ تُرْبي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة، وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره، فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيِّه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت، فكل نقصٍ وبلاءٍ وشرٍّ في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شرٌّ قطُّ إلا الذنوب وموجباتها.



وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأموال أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر والبر والفاجر، وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته، مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل وبالثواب والعقاب، فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالَّة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة، كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب، ولم أبادره، ولم أتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيئ، فإذا أصابني أو فوقه أو دونه كما حسبت، يكون هِجِّيراي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته، فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علماً بصدقه وبصيرةً فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه، فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا القلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح وتقلب السفينة وتكفئها، ولا سيما إذا انكسرت به، وبقي على لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك، فقلبه في واد آخر.



فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها مِنْ سقيٍ بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية وكان الهلاك، كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر كما أن الحمَّى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغيُّرَ القلوب عليه، وجفولَها منه، وانسدادَ الأبواب في وجهه، وتوعُّرَ المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلُّبَه ذلك حتى يعلم من أين أُتي، ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوِّي إيمانه، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تقضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه، وازداد إيماناً مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متى تبصَّر فيه وأعطاه حقَّه صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه، والله أعلم.

آثار الذنب على صاحبه

فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمَنْ صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه



غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يُعصى، فلا يجد في قلبه رحمةً للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم، فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّيَ ونفسه استغاث الله، والتجأ إليه، وتململ تململ السليم، ودعاه دعاء المضطر، فتبدَّلت تلك الغلظة على المذنبين رقَّةً، وتلك القساوة على الخاطئين رحمةً وليناً، مع قيامه بحدود الله، وتبدَّلَ دعاؤه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفة من عمره، يسأل الله أن يغفر لهم، فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه! والله أعلم.

مشهد الذل والانكسار

مشهد الذل والانكسار والخضوع الذي يتحلى به الإنسان والافتقار للرب ﷻ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليِّه، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرةٌ خاصةٌ لا يشبهها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغَب في مثله، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيِّمه، فحينئذٍ يستكثر في هذا المشهد ما منَّ به ربه عليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً، فأي خير ناله من الله



استكثره على نفســه، وعلم أن قَدْره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ورآها ـ ولو ســاوت طاعات الثقلين ـ من أقل ما ينبغي لربه عليه، واســتكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكســرة التــي حصلت لقلبه أوجبت لــه هذا كله، فما أقــرب الجبر من هذا القلب المكســور! وما أدنى النصر والرحمة والــرزق منه! وما أنفع هذا المشــهد له وأجداه عليه! وذرة مــن هذا ونَفَسٌ منه أحبُّ إلــى الله من طاعاتٍ أمثال الجبال من المُدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحبُّ القلوب إلى الله ســبحانه قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكســرة وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأســه إليه حياءً وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيســجد القلب؟ قال: نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء.

فهذا سجود القلب، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، وإذا ســجد القلب لله ـ هذه السجدة العظمى ـ ســجدت معه جميع الجوارح، وعنــا الوجه حينئذٍ للحــيِّ القيُّوم وخشــع الصوت والجوارح كلهــا، وذل العبد وخضع واســتكان، ووضع خدَّه على عتبة العبوديــة، ناظراً بقلبه إلــى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرى إلا متملِّقاً لربه خاضعاً له ذليلاً مســتعطفاً له، يســأله عطفه ورحمته، فهو يترضَّى ربه كما يترضى المحبُّ الكاملُ المحبَّــةِ محبوبَه المالكَ له الــذي لا غنى له عنه،



ولا بد له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه ومحبته له، يقول: كيف أُغضِب مَن حياتي في رضاه؟! وكيف أعدل عمَّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟!

وصاحب هذا المشـهد يشهد نفسـه كرجل كان في كنف أبيه، يغذوه بأطيب الطعام والشـراب واللباس، ويربِّيه أحسـن التربية، ويرقِّيه على درجات الكمال أتـمَّ ترقية، وهو القيِّم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه فـي حاجة له فخرج عليه في طريقه عدوه فأسـره وكَتَفَهُ وشـدَّه وثاقاً، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسـامه سوء العذاب، وعامله بضدِّ ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعـد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسـرات كلما رأى حاله، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه، فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ويريد نحره في آخر الأمر إذ حانت منه التفاتةٌ إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريباً فسعى إليه، وألقى نفسه عليه وانطرح بين يديه، يسـتغيث يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعه تسـتبق على خديه قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه حتى وقف على رأسـه وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول إن والده يُسْلِمُه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلِّي بينه وبينه؟!

فما الظن بمـن هو أرحم بعبده من الوالـد بولده، ومن الوالدة بولدها، إذا فرَّ إليه، وهـرب من عدوِّه إليه، وألقى بنفسـه طريحاً ببابه، يمرِّغ خده فـي ثرى أعتابـه باكياً بين يديه يقـول: يا ربِّ،



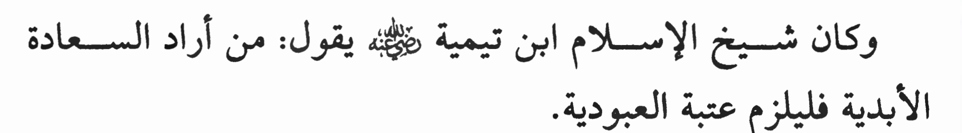
يا ربِّ، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤمِّلك ومرجِّيك، لا ملجأ ولا منجى له منك إلا إليك، أنت معاذه وبك ملاذه.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... ومَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ

مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقاء الله

مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقاء الله تعالى، والابتهاج به والفرح والسرور به تقر به عين العبد، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معصيته ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من بابٍ إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب بابٍ إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.



وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عملٌ واجتهاد، ولا يضرُّ مع الذل والافتقار بطالة.

يعني بعد فعل الفرائض، والقصد: أن هذه الذلة والكسرة ـ كسرة المعصية التي حصلت له ـ الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة، لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار، وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضَيْعَةً وعجزاً وتفريطاً وذنباً وخطيئةً نوعٌ آخر وفتحٌ آخر، والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في وادٍ وهو في وادٍ، وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السُّعاة، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده، فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله، فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال مواقعته وبعده، وبره به، وحلمه عنه، وإحسانه إليه، هاجت من قلبه



لواعج محبته، والشـوق إلى لقائه، فإن القلوب مجبولة على حبِّ مَنْ أحسـن إليها، وأي إحسان أعظم من إحسـان من يبادره العبد بالمعاصي، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره؟!

أثر المعصية

المعصية لا بد أن تؤثِّر سـيئاً ولا بد: إما هلاكاً كلياً، وإما خسراناً وعقاباً، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمـان، وعمل التائب فـي رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع في الزيـادة ورفع الدرجات، ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي ﷺ خاصة، فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات، وأين هذا من هذا؟!

من علامات الإنابة

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسـك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ على نفسـك النقمة، فـإن كنت لا بدَّ مسـتهيناً بهـم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك، وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شـهد حقيقة الخلق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله

وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظَّهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني، لم يجد بدّاً من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرةٍ من ذلك كان لنفسه أشدَّ مقتاً واستهانة، فهذا هو الفقيه.

فلا إله إلا الله كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ، تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه! وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر، وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها، فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاعٌ تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه وبين الخالق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

قطاع الطريق

بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قُطَّاعٌ تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال ورؤية العمل ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله



تعالى سترها على أكثر العُمَّال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار وترك العمل وخمود العزم وفتور الهمة.

افتقار العبد إلى العِظَة

يشتد افتقار العبد إلى العظة ـ وهي الترغيب والترهيب ـ إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتدَّ حاجته إلى التذكُّر والترغيب والترهيب، ولكن تكون منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة، فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فأطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، وأما الموعظة فقيَّدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة، وكذلك الجدال، قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدَّته ورفقه، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدلُّه على المقصود وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.



النفوس مجبولة بعدم الانتفاع بكلام من لا يعمل

النفوس مجبولةٌ على عدم الانتفاع بكلام مَنْ لا يعمل بعلمه، ولا ينتفع به، ولأجل هذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي، فإذا أمرت بشيءٍ فكن أوَّلَ الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيتَ عن شيءٍ فكن أوَّلَ المنتهين عنه.

حياة العقل

وحياة العقل هي صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودته، وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به، وهو نور يخصُّ الله به من يشاء من خلقه، وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين التي جرَّبوها فألفوها صحيحة أنَّ مَنْ أدمن: «يا حي يا قيوم لا إلٰه إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ شديد اللهج بها جدّاً، وقال لي يوماً: «لهذين الاسمين وهما: (الحي القيوم) تأثير عظيم في حياة القلب»، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم، وسمعته يقول: «من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر (يا حي يا قيوم لا إلٰه إلا أنت برحمتك أستغيثك) حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه».



قصر الأمل من أنفع الأمور للقلب

فأما قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافسة الأيام وانتهاز الفرص التي تمرُّ مرَّ السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارِط، ويزهِّده في الدنيا ويرغِّبه في الآخرة، فيقوم بقلبه ـ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـ شاهدٌ من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وأنها لم يبقَ منها إلا كما بقي من يومٍ صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكلٌّ منهما يسير إلى الآخر فيوشك أن يلتقيا سريعاً، ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٣، ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ

﴿أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طـه: ١٠٣، ١٠٤]، وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: «**إِنَّه لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنيَا فِيْمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَومِكُمْ هَذَا فِيْمَا مَضَى مِنْهُ**»[١]، ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه وهم يعالجون خُصّاً لهم قد وهى، فهم يصلحونه، فقال: «**مَا هَذا؟**» قالوا: خُصٌّ لنا قد وهى فنحن نعالجه، فقال: «**مَا أَرَى الأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ هَذَا**»[٢].

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقُّن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقُّن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويؤثر أولاهما بالإيثار.

مفسدات القلب

مفسدات القلب خمسة: (كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام)، وهذه الخمسة تطفئ نوره وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه إن لم تصمه، وتبكمه وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته، وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام! فهي عائقة له عن نيل كماله، قاطعة له عن الوصول إلى ما خُلق له وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه، فإنه لا نعيم له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١) وقال: حديث حسن. وأحمد في «مسنده» (١١١٤٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٣٦)، والترمذي (٢٣٣٥) وقال: حديث حسن صحيح.



والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

وقال بعض العارفين: «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

وقال بعض المحبِّين: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه»، أو نحو هذا من الكلام.

وكلُّ من له قلبٌ حيٌّ يشهد هذا ويعرفه ذوقاً، وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومُحدِثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

أثر الخلطة

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودَّ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً وهمّاً وغمّاً وضعفاً وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقسُّم فكره في أودية

مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟! وكم جلبت خلطة النــاس من نقمة، ودفعــت من نعمة، وأنزلــت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلَّت من رزية، وأوقعت في بلية؟! وهل آفة الناس إلا الناس؟! وهل كان على (أبــي طالب) عند الوفاة أضر من قرناء الســوء؟! لم يزالوا حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة، توجب له سعادة الأبد.

الضابط في الخلطة

والضابــط النافع في أمــر الخلطة: أن يخالــط الناس في الخير؛ كالجمعــة والجماعة، والأعيــاد والحج، وتعلــم العلم، والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشــر وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشرِّ ولم يمكنه اعتزالهم، فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومــن المؤمنين ومن رب العالمين، فالصبر على أذاهم أحســن عاقبة وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهــد أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إن أمكنه، ويشــجِّع نفســه ويقوِّي قلبه، ولا يلتفــت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأنَّ هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك، فليحاربه وليســتعن بــالله، ويؤثِّر فيهم من الخير ما أمكنه.



فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليَسُلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً قريباً بعيداً نائماً يقظاناً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس! وإنه ليسيرٌ على من يسّره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبَّةٌ صادقةٌ، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية، الآتي ذكرها، ولا ينال هذا إلا بعدَّةٍ صالحة ومادَّةِ قوَّةٍ من الله ﷻ وعزيمةٍ صادقةٍ، وفراغٍ من التعلُّق بغير الله تعالى، والله أعلم.

التمني من مفسدات القلب

المفسد الثاني من مفسدات القلب: ركوبه بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم كما قيل: «إن المنى رأس أموال المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان وخيالات المحال والبهتان»، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية كلٌّ بحسب حاله، من متمنٍّ للقدرة والسلطان وللضرب



في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه، وقد فاز بوصولها والتذَّ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يفر به إلى الله، ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور، وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: «**هُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**»[1]، وتمنَّى ﷺ في حجة الوداع أنه لو كان تمتَّع وحلَّ ولم يسق الهدي، وكان قد قرن، فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمنَّاه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

التعلق بغير الله

المفسد الثالث من مفسدات القلب: التعلق بغير الله تبارك وتعالى، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وَكله الله إلى ما تعلق به وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



مقصوده من الله ﷻ بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممَّن تعلَّق به وصل، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلَّق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرَّض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بُني عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قُهر بباطل، وقد يكون مذموماً منصوراً كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

الطعام

المفسد الرابع من مفسدات القلب: الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمُحرَّمات، وهي نوعان: محرمات لحقِّ الله: كالميتة والدم ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع، والمخلب من الطير، ومحرمات لحقِّ العباد: كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضى صاحبه؛ إما قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدْره وتعدِّي حدِّه؛ كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها، وقوَّى عليه مواد الشهوة، وطُرق مجاري الشيطان ووسَّعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً، وفي الحديث المشهور: «**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1]. ويحكى أن إبليس ـ لعنه الله ـ عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال يحيى: هل نلت مني شيئاً قط؟ قال: لا، إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشهَّيْته إليك حتى شبعت منه، فنمت عن وردك، فقال يحيى: لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً، فقال إبليس: وأنا لله عليَّ أن لا أنصح آدمياً أبداً.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٣٧ ـ ٦٧٣٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



كثرة النوم

المفسد الخامس: كثرة النوم، فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جداً، ومنه الضار غير النافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران، ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزيَّة عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف ليل الأول وسدسه الأخير، وهو مقدار ثماني ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً: النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه، فهو مكروه شرعاً وطبعاً، وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مورثٌ لآفاتٍ أخرى عظام: من سوء المزاج



ويبســـه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضاً متلفــة، لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير، وبالله المستعان.

النفس كالجبل العظيم

النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله ﷻ، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شــاق عليه، ومنهم من هو ســهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، وفي ذلك الجبل أودية وشعوب وعقبات ووهود وشوك وعوسج وعُلَّيق وشبرق، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقـد بزيت الإخبات، وإلا تعلَّقت بهم تلك الموانع، وتشــبثت بهم تلك القواطــع، وحالت بينهم وبين السير. فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشــيطان على قُلَّة ذلك الجبل يُحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوفهم منه، فيتفق مشــقة الصعود وقعود ذلــك المخوف على قُلَّتــه وضعف عزيمة الســائر ونيته، فيتولد من ذلــك الانقطاع والرجوع، والمعصــوم من عصمه الله، وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً،



وحينئذٍ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يُفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن، فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

متى تكون زاهداً؟

لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد في ستة أشياء: (المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله)، وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبةً للنساء ونكاحاً لهن وأغناهم، وكان عبد الله بن مبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، يقول: «لولا هو لتمندل بنا هؤلاء».

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك»، فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه.



عمارة الوقت

وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة، فإنه متى أخذها بنيَّة القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه، كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات، فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه وجماع أهله وراحته أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان، وقد حُكيَ عن بعضهم أنه كان يَردُ عليه وهو على بطن امرأته حالٌ لا يعهدها في غيرها، ولهذا سبب صحيح وهو اجتماع قوى النفس وعدم التفاتها حينئذٍ إلى شيء، مع ما يحصل لها من السرور والفرح، والسرور يذكِّر بالسرور، واللذة تذكِّر باللذة، فتنهض الروح من تلك الفرحة واللذة إلى ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية والقوة والنشاط وقطع أسباب الالتفات، فيورثه ذلك حالاً عجيبة، ولا تعجل بالإنكار، وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه في هذا الحال، كيف تراه؟! فهكذا حال غيرك، ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعيَّتها وزال تشتتها، اللهم اغفر فقد طغى القلم وزاد الكلم، فعياذاً بك اللهم من مقتك.

طهارة النفوس

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]،



ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أُمر القائم بين يدي الله ﷻ بإزالتها والبعد عنها، والمقصود: أن الورع يطهِّر دنس القلب ونجاسته كما يطهِّر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة باطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر، ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البَرِّ ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما، وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[1]، من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

كيف تكرم نفسك؟

مَنْ كَرُمت عليه نفسه وكبرت عنده، صانها وحماها وزكَّاها وعلَّاها، ووضعها في أعلى المحالِّ، وزاحم بها أهل العزائم والكمالات، ومَنْ هانت عليه نفسُه وصَغُرت عنده، ألقاها في

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).



الرذائل، وأطلق شِناقها، وحلَّ زمامها، وأرخاه ودسَّاها، ولم يصنها عن قبيح، فأقلُّ ما في تجنُّب القبائح صون النفس.

العاقل واكتساب الحسنات

ينبغي للعاقل أن يوفِّر زمانه على اكتساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها، وأن يوفِّر الحسنات المفعولة عن نقصانها بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدَّم في منزلة التوبة أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها، فلا بدَّ أن تضعفها قطعاً، فتجنُّبها يوفِّر ديوان الحسنات، وذلك بمنزلة من له مال حاصل، فإذا استدان عليه فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

أثر الإيمان وعدمه على النفوس

الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود، فإن العبد كما جاء في الحديث: «**إِذَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ فَأَذْنَبَ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، وَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»(١)، فالقبائح تُسوِّد

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٧٩).



القلب وتطفئ نوره، والإيمان هو نور في القلب، والقبائح تذهب به أو تقلّله قطعاً، فالحسنات تزيد نور القلب، والسيئات تطفئ نور القلب، وقد أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سببٌ للران الذي يعلوها، وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء: ٨٨]، وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سببٌ لتقسية القلب فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار من تقسية القلب واللعنة وتحريف الكلم ونسيان العلم، فالمعاصي للإيمان كالمرض، والحمَّى للقوة سواء بسواء، ولذلك قال السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحُمَّى بريد الموت»، فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

المباح وأثره في ذهاب الصفاء

فإن كثيراً من المباح يُكدِّر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويطفئ نورها، ويخلِقُ حسنها وبهجتها، وقال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ في شيء من المباح: «هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة»، أو نحو هذا من الكلام، فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام، فإن بينهما برزخاً كما تقدم، فتركه لصاحب هذه الدرجة كالمتعين الذي لا بدّ منه لمنافاته لدرجته.



مراقبة الله تعالى في الخواطر

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سرِّه حفظه الله تعالى في حركاته في سرِّه وعلانيته، و(المراقبة) هي التعبُّد باسمه: (الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير)، فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها حصلت له المراقبة، والله أعلم.

نعيم سرور القلب وقرة العين

فإن سرور القلب بالله وفرحه به وقرة العين به لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة، وليس له نظير يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنة، حتى قال بعض العارفين: «إنَّه لتمرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»، ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتَّهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان، وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجْد حلاوته، فذكر الذوق والوجد وعلَّقه بالإيمان فقال: **«ذَاقَ طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً وَبِالْإِسْلَامِ دِيْناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»**[1]، وقال: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيْمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،**

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤).



وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَعُوْدَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[(١)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتَّهمه، فإن الرب تعالى شكور»، يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوةٍ يجدها في قلبه وقوَّةٍ وانشراحٍ وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول. والقصد: أن السرور بالله وقربه وقرة العين به تبعث على الازدياد من طاعته، وتحثُّ على الجد في السير إليه.

الآفات الثلاث التي تعرض للعامل

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: (رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه)، فالذي يخلِّصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فإن النفس جاهلة ظالمة طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة، وهي منبع كل شر ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه، فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه، لا من العبد ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٦).

أبدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلْقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله، والذي يخلِّص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه ومعرفة نفسه.

والذي يخلِّصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضُّلٌ منه وإحسانٌ إليه وإنعامٌ عليه، لا معاوضة، إذ الأجرة إنما يستحقها الحرُّ أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا...

والذي يخلِّصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان، فكل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ، وقد سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته، فقال: «**هُوَ اختِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ**»[1]، فإذا كان هذا التفات طَرْفِهِ أو لحظه، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟! هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١).



وقال ابن مسعود: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه أن لا ينصـرف إلا عن يمينه»، فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد، فما الظن بما فوقه؟! وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب ﷻ من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله، فسوء ظنه بنفسه وعمله، وبغضه لها وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله، يحول بينه وبين الرضى بعمله والرضى عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلِّي في اليوم والليلة أربعمئة ركعة، ثم يقبض على لحيته ويهزها ويقول لنفسه: يا مأوى كل سوء، وهل رضيتُك لله طرفة عين؟!

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

خجل الإنسان من عمله

خجل الإنسان من عمله وشدة حيائه من الله، إذ لم يرَ ذلك العمل الذي يعمله صالحاً لله تعالى له مع بذل مجهوده فيه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]،



قال النبي ﷺ: «**هُوَ الرَّجُلُ يَصُوْمُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»[1]، وقال بعضهم: «إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني الذي يراه الناس حياءً من الله ﷻ»، فالمؤمن جمع إحساناً في مخافة وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حَسَنُ الظنِّ بنفسه مع إساءته.

الشيطان يشم القلب

والشـيطان يشـمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعيةً للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدَّةَ طلبٍ لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجـور على النفس ومجاوزة حدِّ الاقتصاد فيها، قائلاً له أن هذا خير وطاعـة، والزيادة في الاجتهاد أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مـع أهل النوم، فلا يزال يحثُّه ويحرِّضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدِّها.

للشيطان نزعتان في كل أمر يأمر به الله

قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط، أو إلى مجاوزة وهي: الإفراط، ولا يبالي بأيِّهما ظفـر، زيـادةً أو نقصاناً، وقال ﷺ لعبـد الله بن عمرو بن العاص: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِـرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرتُهُ إِلَى بِدْعَةٍ خَابَ وَخَسِرَ**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦٤٧٧).



الصبر

الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخُّط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجبِّ وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً والغريب لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً والملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحرِّ، والمرأة جميلة وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصَّغَار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى



الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

أنواع الصبر

والصبر على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبِّرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومَحابِّه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصدِّيقين.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه.



الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر

والشكوى إلى الله ﷻ لا تنافي الصبر. فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبيُّ إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وإنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادَّعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمُّل المشاق وتجشُّم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبيَّن بذلك أن أعظمهم محبة أشدُّهم صبراً، ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، ثم أثنى عليه فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان كما تقدم، فجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى، وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تُسلِّم عليهم في الجنة بصبرهم.



وليس في استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه وإحساسها به ما يقدح في محبتها ولا توحيدها، فإن إحساسها بالألم ونفرتها منه أمر طبعي لها، كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب وتألُّمها بفقده، فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية، وإلا لم تكن نفساً إنسانية، ولارتفعت المحنة، وكانت عالماً آخر.

الصبر الأكمل

الصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره، كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام، فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة، وبينهما من البون ما قد عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم الصلاة والسلام - على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم، أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله.

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف، فعلمت بهذا: أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الجود

(الجود) عشر مراتب: أحدها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ البَخِيْلُ بِهَا ... وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةَ الجُودِ

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه، فيجود بها تعباً وكداً في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل:

مُتَيَّمٌ بِالنَّدَى لَوْ قَالَ سَائِلُهُ ... هَبْ لِي جَمِيْعَ كَرَى عَيْنَيْكَ لَمْ يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً، ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم أو لا، مقتصراً عليها.



ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلــك أمراً عجيباً: كان إذا سـئل عن مسـألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القــول الراجح، وذكر متعلقات المســألة التي ربمـا تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمســألته، وهــذه فتاويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين النــاس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم أنه لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد ســأل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ النبي ﷺ عن المتوضىء بماء البحر، فقال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»(١)، فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكان خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك، ويقولون: سأله الســائل عن طريق مصر مثلاً فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند، وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟! ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب الجهل والكبر، وهذا موضع المثل المشهور: لقبوه بحامض وهو خل، مثل من لم يصل إلى العنقود.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه؛ كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦).



السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ**»(١).

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة رضي الله عنهم كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني أو قذفني فهو في حل، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ**»(٢)، وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا بالنفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوَّة، قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٧).



هذه الآية: مقامَ العدل وأذن فيه، ومقامَ الفضل وندب إليه، ومقامَ الظلم وحرَّمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلَقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ**»[1]، وفي هذا الجود من المنافع والمسارّ وأنواع المصالح ما فيه.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له بقلبه، ولا يعترض له بحاله ولا لسانه، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل.

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم، تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه قد تضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان.

وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحداً، فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم، وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم على الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم، وأيُّ جهالةٍ وسفهٍ فوق هذا؟!

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، ولفظه عنده: «ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ».



أثر إيثار العبد مرضاة الله تعالى على مرضاة الخلق

ما آثر عبد مرضاة الله ﷻ على مرضـاة الخلق وتحمل ثقل ذلك ومؤنته وصبر على محنته، إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمةً ومسرَّةً ومعونةً، بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً، ومظان عطبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنتـه منحة، وسـخطه رضـى، فيا خيبـة المتخلفيـن ويا ذلة المتهيبين، هذا وقد جرت سُـنَّة الله ـ التي لا تبديل لها ـ أن مَنْ آثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يُسـخِط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته، ويجعـل محنته على يديه، فيعود حامـده ذاماً، ومن آثر مرضاته سـاخطاً، فلا على مقصوده منهم حصـل، ولا إلى ثواب مرضاته ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم، هذا مع أن رضى الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور، فهو مستحيل، بل لا بد من سخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسـخطوا عليك والله عنك غير راضٍ، وإلا فأهون شيء رضى من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك، فإن ضرَّك في أمرٍ يسـيرٍ في الدنيا فمضرَّةُ سـخط الله أعظـم وأعظم، وخاصـة العقل احتمـال أدنى المفسـدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنـى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازن بعقلك ثم انظر أي الأمرين خير فآثره، وأيهما شـرٌّ فابعد عنه، فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضى الله على رضى الخلق، هذا مـع أنه إذا آثر رضى الله كفـاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.



قال بعض السلف: «لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها».

وقال الشافعي رضي الله عنه: «رضى الناس غايةٌ لا تُدرَك». فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

إيثار رضى الله له أعداء وخصوم

من آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم وغرثاهم (الجائعون) وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله عامل على سماع خطاب ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، ومَنْ إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال ولا تقلقله الجبال، ومَنْ عقدُ عزيمةِ صبرِهِ محكمٌ لا تحلُّه المحن والشدائد والمخاوف.

وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء، فما ضَعُفَ مَنْ ضَعُفَ وتأخَّرَ مَنْ تأخَّرَ إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمِّهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين تأخرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذٍ في العساكر.

جماع مكارم الأخلاق

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال جعفر بن



محمد: أمر الله نبيَّــه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليـــس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر أنه لما نزلت هذه الآية قال رســـول الله ﷺ لجبريل: «مَا هَذَا؟»، قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل ثم رجع إليه، فقال: إن الله يأمرك أن تصلَ مَنْ قطعك، وتعطيَ مَنْ حرمك، وتعفوَ عَمَّن ظلمك.

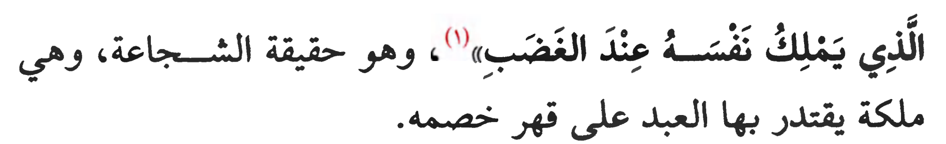
الدين كله خلق

الدين كله خلق، فمن زاد عليـــك في الخلق زاد عليك في الدين. وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظـــم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والإنابة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفـــة: تحمله علـــى اجتناب الرذائـــل والقبائح مـــن القول والفعل، وتحمله علـــى الحياء، وهو رأس كل خيـــر، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشـــجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثـــار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمســـك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش، كما قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيْدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيْدُ**



الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسُّطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط الذلِّ والقِحَة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهوُّر، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

خلق بين خلقين

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود الذي يكتنف خلقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنف خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو. فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد.

فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت إما إلى قِحَة وجرأة، وإما إلى عجزٍ وخَوَرٍ ومهانةٍ، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه، ويفوته

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).



كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجُّر طبع، كما قال بعضهم:

يُبْكَى عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ فَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَاداً مِنَ الإِبِلِ

وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة، ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِئٌ إِلَيْهَا اللِّئَامُ

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت إما إلى كبر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضى بالدون.

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص وكَلَبٍ، وإما إلى خِسَّة ومهانة وإضاعة.



وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطي البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمِع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقِع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق، وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب عزيز جانبه حبيب لقاؤه، وفي صفة نبينا ﷺ مَنْ رآه بديهةً هابه، ومن خالطه عِشرة أحبه، والله أعلم.

وهذا باب نافع جداً، عظيم النفع للسالك يوصله عن قريب، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها، فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاءَ سلطان تلك الأخلاق وبرَزَ، كَسَرَ جيوش الرياضة وشتَّتَها، واستولى على مملكة الطبع.



وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدِّم قبل هذا مثلاً نضربه مطابقاً لما نريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صببه ومنحدره ومُنتَهٍ إلى تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرب أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق: فرقة صرفت قواها وأعمالها إلى سَكْرِه وحبسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السَّكْر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم، وفرقة رأت هذه الحالة وعلمت أنه لا يغني عنها شيئاً، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار، فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا يتضرَّرون به، فصرفوه إلى أرضٍ قابلةٍ للنبات، وسقوها به فأنبتت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه المسألة وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها فقال لي في جملة كلامه: النفس مثل الباطوس، وهو جُبُّ القَذَرِ، كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ولم يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً، وأثنى على قائله.

هل الأخلاق كسبية؟

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبياً أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخليق والتكلف حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشجِّ عبد القيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»، فقال: أخلقين تخلَّقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «**بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا**»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[(١)]. تدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب،

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥)، وأصله عند مسلم (١٨) دون السؤال والجواب.



وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ**»[1]، فذكر الكسب والقدر، والله أعلم.

مشاهد العبد في الأذى

وللعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجناياتهم عليه:

أحدها: مشهد القدر، وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار، فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

المشهد الثاني: مشهد الصبر، فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا وهو محمود، صبر اضطراراً على أكبر منه وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم، فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته،

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

فإنه ما زاد الله عبداً بعفـوٍ إلا عزّاً، كما صح ذلك عن النبي ﷺ[1]، وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ، هذا وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد الرضى، وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره، ومتى تسخَّط به وتشكَّى منه كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة وليتأخَّر، فليس من ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



لتثبت الهبة، وتأمن رجوع الواهب فيها، وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم، ويهوِّنه عليك أيضاً علمك بأن الجزاء من جنس العمل، فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه وأحسنت إليه مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك، فهذا لا بد منه، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبرد القلب، وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته، وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه، بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذ وأطيب وأعون على مصالحه، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغلِّ والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟!

المشهد السابع: مشهد الأمن، فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقمَ واقعَهُ الخوف ولا بد، فإن ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوه ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردى عدوه الكبير! فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل أمن من تولُّد العداوة أو زيادتها، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكفُّ من جزعه، بعكس الانتقام، والواقع شاهد بذلك.

المشهد الثامن: مشهد الجهاد، وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر،

وإقامة دين الله وإعلاء كلماته، وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنه، فلا حقَّ له على من آذاه، ولا شيء له قبله إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره على الله، وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة ﷺ، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزَّها الله ـ ولم يردَّ على أحدٍ منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمِّنهم دية من قتلوه في سبيل الله، ولمَّا عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد»، فأطبق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق، فمن قام لله حتى أوذي في الله حرَّم الله عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

المشهد التاسع: مشهد النعمة، وذلك من وجوه، أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر، ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين لا بد من إحداهما لاختار أن يكون مظلوماً، ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه، فإنه ما أصاب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا أذىً إلا كفَّر الله به من خطاياه، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه فهو مغبون سفيه، فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلى مرارة الدواء



وكراهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركَّبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته. ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها، فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرُّ، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهيِّنة، وأنها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين. ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء، هذا وإن العبد ليشتدُّ فرحه يوم القيامة بما له قِبَل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يعدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

المشهد العاشر: مشهد الأسوة، وهو مشهد شريف لطيف جداً، فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدود، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أممهم، وشأن نبيِّنا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله، وقد قال له ورقة بن نوفل: «**لتُكذَّبَنَّ ولتُخرجَنَّ ولتؤذينَّ**»، وقال له: «**مَا جَاءَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ**»[1].

وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ، أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله وخواص عباده الأمثل فالأمثل!..

(١) أخرجه البخاري (٣، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠).



ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء وأذى الجهال لهم، وقد صنف في ذلك ابن زَبْر[1] كتاباً سماه «مِحَن العلماء».

المشهد الحادي عشر: مشهد التوحيد، وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له، ومعاملته وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والأنس به، واطمأن إليه وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فوّض إليه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته، وفَنِيَ بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه عن كل ما سواه، فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلُّب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلب جائع غير شبعان، فإذا رأى أي طعام هفت إليه نوازعه، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها، فإنه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نُجِّيَ صاحبُهُ من حبس الغار حين أطبقت عليهم

---

(١) هو الحافظ أبو سليمان محمد بن عبد الله بن زَبْر الربعي (ت ٣٧٩). ترجم له الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء».



الصخرة! والإخلال به مع الأم تأويلاً وإقبالاً على الصلاة، كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة! وتأمل أحوال كلِّ شقيٍّ ومُعَثَّرٍ[1] ومدبرٍ، كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان! وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه، فقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ»، كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده! فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن أثبت مكانك جمزاً وسعياً إلى قدام! بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطيِّ، والله أعلم.

أنواع غذاء القلوب

اعلم أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعاً من الطعام والشراب الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله. والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب، من السرور والفرح والابتهاج واللذة والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماوياً علوياً، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً، وقوامه بهذين الغذاءين، وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤيةً، ولهذا كان

---

(١) هو الذي تَعِسَ جَدُّه وعَثَرَ به الزمان.

الصحيح من القولين: أن حاسة السمع أفضل من حاسة البصر، لشدة تعلقها بالقلب، وعظم حاجته إليها، وتوقف كماله عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقف الهدى على سلامتها، فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيب صوت القارئ كاد القلب يفارق هذا العالم، ويلج عالماً آخر، ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره البتة، وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة، فيا له من غذاءٍ ما أصلحه وما أنفعه! وحرام على قلب قد تربّى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة، فهو من قبل الصوت المشترك لا من قبل المعنى الخاص، وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم ﷻ عياناً وسماع كلامه منه، والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة، فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه أي بمصاحبته وحضوره في قلبه، فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر، والله أعلم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: في قول النبي ﷺ: «**لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**»[1]، إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله ﷻ ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟!

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥، ٣٣٢٢)، ومسلم (٢١٠٦).



فهذا من إشـارة اللفظ الصحيحة، ومن هذا أن طهارة الثوب الظاهر والبدن إذا كانت شـرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجساً ولم يُطهِّره صاحبه؟! فكيف يعتـد له بصلاته وإن أسـقطت القضاء؟! وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟! ومن هذا أن اسـتقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها، وهي بيت الرب، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقلبه شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى ربِّ القبلة والبدن؟! بل وجَّه بدنه إلى البيت ووجَّه قلبه إلى غير ربِّ البيت! وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن، وصحة البصيرة، وحسن التأمل، والله أعلم.

الأسباب الجالبة للمحبة

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها عشرة:

أحدها: قـراءة القرآن بالتدبـر، والتفهم لمعانيـه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد، ويشرحه ليتفهَّم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعـد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره علـى كل حال باللسـان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى، والتسنُّم إلى محابِّه وإن صعب المرتقى.



الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة.

السادس: مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختمِ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقي أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعته لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق.

تخلل الفترات للسالكين

فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم رجي له أن يعود خيراً مما كان، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت



فألزموها الفرائض»، وفي هذه الفتــرات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، وبها يتبين الصادق من الكاذب، فالكاذب ينقلب على عقبيه، ويعود إلى رســوم طبيعته وهواه، والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله، ويلقي نفسه بالباب طريحاً ذليلاً مسكيناً مســتكيناً، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد، وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأســباب لكن ليس هو منك، بل هو الذي مَنَّ عليك به وجرَّدك منك وأخلاه عنك، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، فإذا رأيته قد أقامك في هــذا المقام فاعلم أنه يريــد أن يرحمك ويملأ إناءك، فإن وضعت القلب فــي غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع، فسَلْ ربَّك ومن هو بين أصابعه أن يردَّه عليك، ويجمع شملك به.

إذا أراد الله تعالى بالعبد خيراً

وإذا أراد الله بالعبد خيراً أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له، وإذا أراد به شــرّاً جعل وقته عليــه وناكَدَهُ وقتــه، فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول كلما همَّت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

ودخلت يوماً على بعض أصحابنا، وقــد حصل له وجد أبكاه فســألته عنه! فقال: ذكرت ما منَّ الله به علي من السُّــنَّة ومعرفتها، والتخلُّص من شُــبَه القوم، وقواعدهــم الباطلــة، وموافقة العقل الصريح والفطرة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ فسرَّني ذلك حتى أبكاني، فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنَّته.

الهمم

ولله الهمم! ما أعجب شأنها وأشـــدَّ تفاوتها! فهمة متعلقة بمن فوق العرش، وهمـــة حائمة حول الأنتـــان والحش، والعامة تقول: «قيمة كل امرئ ما يحســـنه»، والخاصة تقول: «قيمة المرء ما يطلبه»، وخاصة الخاصة تقول: «قيمتُه همَّتُه إلى مطلوبه».

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظـــر إلى همَّة ربيعة بن كعب الأســـلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ: «سَـــلْنِي»، فقال: أســـألك مرافقتك في الجنة[1]. وكان غيره يســـأله ما يملأ بطنه أو يواري جلده! وانظر إلى همة رســـول الله ﷺ حيـــن عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها، ومعلوم أنه لو أخذها أنفقها في طاعة ربه تعالى، فأبت له تلك الهمة العالية أن يتعلق منها بشـــيء مما سوى الله ومحابِّه، وعرض عليه أن يتصرف بالملك فأباه، واختار التصرف بالعبودية المحضة، فلا إله إلا الله خالق هذه الهمة وخالق نفس تحملها، وخالق همم لا تعدو هممَ أخسِّ الحيوانات.

الفرح أعلى أنوع النعيم

الفرح أعلى أنواع نعيـــم القلب ولذتـــه وبهجته، والفرح والســـرور نعيمُه، والهم والحـــزن عذابُه، والفرح بالشـــيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وســـكون وانشـــراح، والفرح لذة وبهجة وسرور، فكل فرح راضٍ، وليس كل راضٍ فرحاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).



مما يحزن العبد

مما يحزن العبد تَفَـرُّق الهم والقلب عـن الله ﷻ، ولهذا التفرق حزن ممضٌّ على فـوات جمعية القلب علـى الله ولذاتها ونعيمها، فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله وفرحه به وأنسه بقربه وشوقه إلى لقائه، وهذا أمر لا يصدِّق به إلا من ذاقه، فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك، فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة ونكد التشتت وغبار الشعث لكفى به عقوبة، فكيف وأقل عقوبته أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشـرتهم وخدمتهم، فتصير أوقاته التي هي مادة حياته لا قيمة لها، مستغرقة في قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم؟! وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله والجمعية عليه والأنس به، ثم آثر على ذلك سواه، ورضي بطريقة بني جنسه، وما هم عليه، ومن له أدنى حياة في قلبه ونور، فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق، كما تستغيث الحامل عند ولادتها، ففي القلب شعث لا يلمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السـرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسـكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسـرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقـة الصبر على ذلك إلى وقـت لقائه، وفيه طلب شـديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسـدُّها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسدَّ تلك الفاقة منه أبداً.



أنس العبد بالخلق وأنسهم به

فإذا تمكن العبد في حاله وصار لـــه إقبال على الله وجمعية عليه ملكةً ومقاماً راســخاً، أنس بالخلق وأنســوا به وانبسط إليهم وحملهم على ضلعهم وبطء ســيرهم، فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه، فــإن الناس ينفرون من الكثيف ولــو بلغ في الدين ما بلــغ، ولله ما يجلب اللطــف والظرف من القلــوب، ويدفع عن صاحبه من الشــرِّ ويســهِّل له ما توعَّر على غيره، فليــس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك، وإلا فهذه الطريق تكســو العبد حلاوة ولطافة وظرفاً، فترى الصادق فيها من أحلى الناس وألطفهــم وأظرفهم، قد زالت عنه ثقالة النفس وكدورة الطبع، وصار روحانياً سماوياً بعد أن كان حيواناً أرضياً، فتراه أكرم الناس عشــرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلباً وروحاً، وهذه خاصة المحبة فإنها تلطِّف وتظرِّف وتنظِّف.

الغربة ثلاثة أنواع

الغربة ثلاثة أنــواع: غربة أهل الله وأهل رســوله بين هذا الخلق، وهــي الغربة التي مدح رســول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريباً وأنه ســيعود غريباً كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء، وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً، فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتســبوا إلى غير رســوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهــم الذين فارقوا



الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟! فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده. فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشدُّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه، ومن هؤلاء الغرباء من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[1]، وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ مُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ!**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**كُلُّ ضَعِيفٍ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[2].

وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١١٥).



وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقّاً، وأكثر النـــاس بل كلهم لائم لهـــم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم.

وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً، فهو عالم بين جُهَّال، صاحب سنة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروفُ لديهم منكرٌ، والمنكرُ معروفٌ.

علامة البلاء الذي حل بك

إذا أردت أن تعــرف ما حلَّ بك من بــلاء الانفصال وذل الحجاب: فانظر لمن اســتعبد قلبك واســتخدم جوارحك، وبمن شغل ســرك، وأين يبيت إذا أخذت مضجعك، وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك، فذلك هو معبودك وإلهك، فإذا سمعت النداء يوم القيامة لينطلق كل واحد مع مــن كان يعبده انطلقت معه كائناً من كان، لا إله إلا الله ما أشــدَّ غبن من باع أطيبَ الحياة في هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيمَ المقيمَ بالحياة المنغَّصة المنكَّدة المتصلة بالعذاب الأليم، والمدة ساعة من نهار أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم فيه ربح الأبد، أو خسارة الأبد.

فَمَا هِيَ إِلَّا سَــاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيَذْهَــبُ هَــذَا كُلُّهُ وَيَــزُوْلُ



كتاب
الوابل الصيّب







سعادة العبد

الله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممَّن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة هي عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفكُّ عبدٌ عنها أبداً، فإن العبد دائماً يتقلب بين هذه الأطباق الثلاث:

نعمٌ من الله تعالى تترادف عليه فَقَيْدُها الشكر، وهو مبنيٌّ على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطناً، والتحدُّث بها ظاهراً، وتصريفها في مرضاة وليِّها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: مِحَنٌ من الله تعالى يبتليه بها، ففرضه فيها الصبر والتسليم. الصبر: حبس النفس عن التسخُّط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية؛ كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحو ذلك.

فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام بها العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه

ليمتحن صبره وعبوديته، فإنَّ لله تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عليه عبودية في السراء، وله عليه عبودية فيما يكرهه كما له عليه عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبُّون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، فيه تتفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى.

فالوضوء بالماء البارد في شدَّة الحرِّ عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبُّها عبودية، ونفقته عليها وعلى نفسه وعياله عبودية، هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وترك المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضرَّاء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبوديَّتين.

فمن كان عبداً لله تعالى في الحالين قائماً بحقه في المكروه والمحبوب؛ فذلك الذي يتناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وفي القراءة الأخرى: عباده، وهما سواء لأن المفرد مضاف، فيعم عموم الجمع.

فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه.

وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

ولمَّا علم عدو الله إبليس أنَّ الله تعالى لا يسلم عباده إليه ولا يسلِّطه عليهم، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ



﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]، فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم ما يغتال اللصُّ الرجلَ الغافلَ، فهذا لا بد منه، لأن العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب.

دخول الشيطان على الإنسان من أبواب ثلاثة

ودخول الشيطان على العبد من هذه الأبواب الثلاثة: (الغفلة، والشهوة، والغضب)، ولو احترز العبد ما احترز فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب، وقد كان آدم أبو البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلاً وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه، فما الظن بفراشة الحِلْم، ومَنْ عَقْله في جنب عقل أبيه كتفلةٍ في البحر؟! ولكن عدو الله لا يخلص إلى المؤمن إلا غيلةً على غرَّةٍ وغفلة، فيوقعه ويظن أنه لا يستقيل ربه ﷻ بعدها، وأن تلك الواقعة قد اجتاحته وأهلكته، وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته من وراء ذلك كله.

إذا أراد الله تعالى بعبده خيراً

فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له باباً من أبواب التوبة والندم، والانكسار والذل، والافتقار والاستغاثة به، وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات، ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.



وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمنُّ بها على ربِّه، ويتكبر بها، ويرى نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت، يورثه ذلك من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمرٍ يكسره به ويذلُّ به عنقه، ويصغر بها نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلَّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلَّهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك.

فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وظلمها وعدوانها، ومشاهد فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبرِّه وغناه وحمده.

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: «العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل».



وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح حديث سيد الاستغفار أن يقول العبد: (**اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)[(١)]، فجمع في قوله ﷺ: (أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي) بين مشاهدة المنَّة ومطالعة عيب النفس والعمل، فمشاهدة المنَّة، توجب له المحبة والحمد والشكر لوليِّ النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار، والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلساً.

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى باب الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض دخول مَنْ قد كسر الفقر والمسكنة قلبه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه ﷻ وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً، وضرورةً كاملةً إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلَّى عنه طرفة عينٍ هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٣).



مدار العبودية على قاعدتين

والعبوديـــة مدارها على قاعدتين همـــا أصلها: حبٌّ كاملٌ وذلٌّ تامٌّ، ومنشـــأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين، وهما: مشـــاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام.

وإذا كان العبد قـــد بنى ســـلوكه إلى الله تعالـــى على هذين الأصلين لـــم يظفر عدوُّه بـــه إلا على غـــرَّةٍ وغفلةٍ، وما أســـرع ما ينعشه الله ﷻ ويجبره ويتداركه برحمته.

استقامة القلب بشيئين

استقامة القلب بشيئين، أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابِّ، فلا يعارض حب الله تعالى حب ما ســـواه، وما أســـهل هذا بالدعـــوى وما أصعبه بالفعـــل! فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وما أكثر ما يقدِّم العبد ما يحبه هـــو ويهواه، أو يحبه كبيره أو أميره أو شـــيخه أو أهله على ما يحبه الله تعالـــى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميـــع المحابِّ، ولا كانت هي الحاكمة عليها المؤمَّرة عليها، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه، فلا ينال شيئاً منها إلا بنكدٍ وتنغيصٍ، جزاءً له على إيثاره هواه وهـــوى من يعظمه من الخلـــق أو يحبه على محبة الله تعالى.



وقد قضى الله ﷻ قضـــاءً لا يُردُّ ولا يُدفع أن من أحب شــيئاً سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سُــلِّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شــؤماً عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشــئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالــى ذمَّ من لا يعظِّمه ولا يعظِّم أمره ونهيه، قال الله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: «هو أن لا يُعارضا بترخيصٍ جافٍّ، ولا يُعرَّضا لتشديدِ غالٍ، ولا يُحملا على علَّةٍ توهنُ الانقياد».

ومعنى كلامــه أن أول مراتب تعظيم الحــق ﷻ تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ﷻ برســالته التي أرسل بها رسوله ﷺ إلى الناس كافة، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمــر الله ﷻ واتباعه وتعظيــم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمــر الله تعالى ونهيــه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحســب هذا التعظيم من الأبرار المشــهود لهم بالإيمان والتصديق، وصحة العقيدة، والبراءة من النفاق الأكبر.

فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمــر لنظر الخلق وطلب المنزل والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية



العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي، ولا عن تعظيم الآمر الناهي.

علامة تعظيم الله تعالى

علامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها، وفعلُها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوات حقٍّ من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنه لو تُقبِّلت منه صلاته منفرداً، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً.

ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة سبعة وعشرون ديناراً لأكل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف وألف وما شاء الله تعالى!

فإذا فوت العبد عليه هذا الربح خسر قطعاً!

وكثير من العلماء يقول: لا صلاة له وهو بارد القلب، فارغٌ من هذه المصيبة، غير مرتاعٍ لها، فهذا من عدم تعظيم أمر الله تعالى في قلبه.

وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته على مَيَامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قُرعة.



وكذلك فوت الجَمْـعِ الكثير الذي تضاعـف الصلاة بكثرته وقلته، وكلما كثـر الجمع كان أحب إلـى الله ﷻ، وكلما بعدت الخطا كانت خطوةٌ تحطُّ خطيئة، وأخرى ترفع درجة.

وكذلك فوت الخشـوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الـرب ﷻ، الذي هـو روحهـا ولبها، فصلاة بلا خشـوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحيي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبداً ميتـاً أو جاريةً ميتةً؟ فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممَّن قصده بها، من ملك، أو أمير، أو غيره؟!

فهكذا سواء، الصلاة الخالية عن الخشـوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها، بمنزلة هذا العبد أو الأمة الميت، الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه ـ وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا ـ ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، كما في السـنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا إِلَّا ثُلُثُهَا إِلَّا رُبُعُهَا إِلَّا خُمُسُهَا، حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا**»[(١)].

تفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب

وينبغي أن يُعلم أن سـائر الأعمال تجـري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفِّر تكفيراً كاملاً، والناقص بحسبه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦١٤، ٦١٥).



وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما:

تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلـــوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه.

وبهذا يزول الإشــكال الذي يورده من نقــص حظه من هذا الباب على الحديث الذي فيه: «**إِنَّ صَوْمَ يَوْمِ عَرَفَةَ يُكَفِّرُ سَــنَتَيْنِ، وَيَوْم عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ سَــنَةً**»[1]، قالوا: فإذا كان دأبه دائماً أنه يصوم يوم عرفة فصامه وصام يوم عاشــوراء، فكيــف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة؟

وأجاب بعضهم عن هذا بــأن ما فضل عــن التكفير ينال به الدرجات.

ويا لله العجب! فليت العبد إذا أتى بهــذه المكفرات كلها أن تكفر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلى بعض.

والتكفير بهذه مشروطٌ بشروط، موقوفٌ على انتفاء موانع في العمل وخارجه، فإن علم العبد أنه جاء بالشــروط كلها، وانتفت عنه الموانع كلها فحينئذٍ يقع التكفير، وأما عمل شملته الغفلة أو لأكثره، وفَقَدَ الإخلاص الذي هو روحه ولبه، ولم يوفَّ حقَّه، ولم يقدره حق قدره، فأيُّ شيء يكفِّر هذا العمل؟!

فإن وثق العبد من عمله بأنه وفَّاه حقه الذي ينبغي له ظاهراً وباطناً، ولم يعرض له مانع يمنع تكفيره ولا مبطل يحبطه، من عجب ورؤية نفســه فيه، أو مَنٍّ به، أو يطلب من العباد تعظيمه

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢).



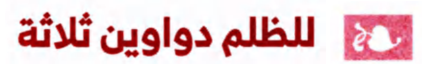
به، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه، أو يعادي من لا يعظمه عليه، ويرى أنه قد بخسه حقه، وأنه قد استهان بحرمته، فهذا أيُّ شيءٍ يُكفِّر؟!

ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.

فالرياء ـ وإن دقَّ ـ محبطٌ للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تحصر، وكون العمل غير مقيَّدٍ باتباع السنة أيضاً موجبٌ لكونه باطلاً، والمَنُّ به على الله تعالى بقلبه مفسدٌ له، وكذلك المَنُّ بالصدقة والمعروف والبر والإحسان والصلة مفسدٌ لها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

علامات تعظيم المناهي

وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرِّب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروهات، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويُحَسِّنها، ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي ما ركب منها، فإنَّ مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.



للظلم دواوين ثلاثة

الظلم عند الله ﷻ يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوانٌ لا يغفر الله منه شيئاً، وهو الشرك به؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً؛ فإن الله تعالى يستوفيه كله.

وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه ﷻ، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان الظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منه.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله ﷻ حرَّم الجنة على أهله، فلا تدخل الجنَّة نفسٌ مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد، وهو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به.

وأسنان هذا المفتاح: هي الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، فأيُّ عبدٍ اتخذ في هذه الدار مفتاحاً صالحاً من التوحيد وركَّب فيه أسناناً من الأوامر، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا تفتح إلا به، فلم يعقه عن الفتح عائق، اللهمَّ إلَّا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار، فإنه يحبس



عن الجنة حتى يتطهَّر منها، وإن لم يطهِّرهم الموقف وأهواله وشدائده، فلا بدَّ من دخول النار ليخرج خبثه فيها، ويتطهَّر من ذنوبه ووسخه، ثم يخرج منها فيدخل الجنة، فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] فعقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول، أي بسبب طيبكم قيل لكم: ادخلوها.

وأما النار فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب ودار الخبيثين، قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء المتراكب بعضه على بعض، ثم يجعله في جهنم مع أهله، فليس فيها إلا خبيث.

الالتفات المنهي عنه في الصلاة

الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان: أحدهما: التفات القلب عن الله ﷻ إلى غيره تعالى، والثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه.

ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه، وقد سئل

رسـول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته، فقـال: «**هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُـهُ الشَّـيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ**»[1]، ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد اسـتدعاه السـلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً، أو قد انصرف قلبه عن السـلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضراً معـه، فما ظن هذا أن يفعل به السـلطان؟! أفليس أقل المراتب في حقه أنْ ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً، وقد سـقط من عينيه؟! فهذا المصلي لا يسـتوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته التي قد أَشْـعَرَ قلبَهُ عظمةَ مَنْ هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحيا من ربه تعالى أن يقبل على غيـره، أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله ﷻ، والآخر سـاهٍ غافل، فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً، فما الظن بالخالق ﷻ؟!

وإذا أقبـل على الخالـق ﷻ وبينـه وبينه حجاب الشـهوات والوسـاوس، والنفس مشـغوفة بها ملأى منها، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد أَلْهَتْهُ الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب؟!

والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم

(١) أخرجه البخاري (٧٥١، ٣٢٩١).



مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنِّيه ويُنْسِيه، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهوِّن عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه فيذكِّره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها، فيذكِّره إياها في الصلاة، ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله ﷻ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه ﷻ الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله، لم تَخِفَّ عنه بالصلاة.

فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحسَّ بأثقال قد وُضِعَتْ عنه، فوجد نشاطاً وراحةً وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها لأنها قرة عينه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها، لا منها، فالمحبون يقولون: نصلِّي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: «**يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»[1]، ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٦).

«**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[١]، فمن جعلت قرة عينه في الصلاة، فكيف تقرُّ عينه بدونها؟!

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرة عينه في الصلاة هي التي تصعد، ولها نور وبرهان حتى يستقْبَلَ بها الرحمن ﷻ، فتقول: «حفظك الله تعالى كما حفظتني»، وأما صلاة المفرِّط المضيِّع لحقوقها وحدودها وخشوعها، فإنها تُلفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق ويُضرب بها وجه صاحبها، وتقول: «ضيَّعك الله كما ضيَّعتني»، فالصلاة المقبولة والعمل المقبول أن يصلي العبد صلاة تليق بربه ﷻ، فإذا كانت صلاة تصلح لربه تبارك وتعالى، وتليق به كانت مقبولة.

المقبول من العمل عند الله تعالى

والمقبول من العمل قسمان:

أحدهما: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلقٌ بالله ﷻ ذاكرٌ لله ﷻ على الدوام، فأعمال هذا العبد تعرض على الله ﷻ حتى تقف قبالته فينظر الله ﷻ إليها، فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية، قد صدرت عن قلب سليم مخلص محب لله ﷻ، متقرب إليه، أحبها ورضيها وقبلها.

الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله، فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاهٍ عن

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٤٩).



ذكر الله، وكذلك سائر أعماله، فإذا رفعت أعمال هذا إلى الله ﷻ لم تقف تجاهه، ولا يقع نظره عليها، ولكن توضع حيث توضع دواوين الأعمال، حتى تعرض عليه يوم القيامة، فتميز، فيثيب له على ما كان له منها، ويرد عليه ما لم يرد وجهه به منها.

فهذا قبوله لهذا العمل إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين، وإثابة الأول رضاه العمل لنفسه، ورضاه على عامله وتقريبه منه، وإعلاء درجته ومنزلته، فهذا يعطيه بغير حساب، فهذا لون والأول لون.

مراتب الناس في الصلاة

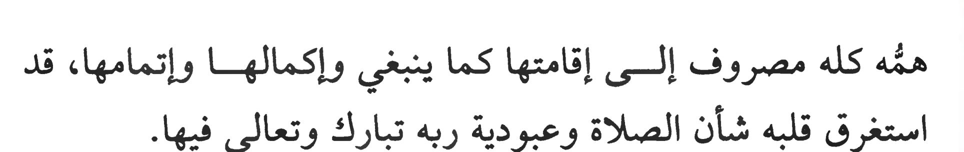
الناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق منه صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها، لئلا يضيع منها شيئاً، بل



همُّه كله مصروف إلـى إقامتها كما ينبغي وإكمالهـا وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قـام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ، ناظراً بقلبه إليه مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّت تلك الوسـاوس والخطرات، وارتفعت حجوبهـا بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السـماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفَّر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرَّب؛ لأن لـه نصيباً ممن جعلت قرة عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرَّت عينه أيضاً به في الدنيا، ومن قرَّت عينه بالله تعالى قرَّت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنمـا يقوى العبد على حضـوره في الصلاة واشـتغاله فيها بربه ﷻ إذا قهر شـهوته وهواها، وإلا فقلب قد قهرته الشـهوة، وأسره الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكَّن فيه، كيف يخلص من الوساوس ومن الأفكار؟!

القلوب ثلاثة

القلوب ثلاثة: قلبٌ خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم، قد استراح الشـيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً، وتحكَّم فيه بما يريد، وتمكَّن منه غاية التمكن.



القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومحاولات ومطامع، فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في قلبه إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم، فلو دنا منه الشيطان ليتخطَّاها رُجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يُحرس ويُحفظ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئاً إلا على غِرَّةٍ وغفلةٍ خَطْفَةً.

وقد مُثِّل ذلك بمثال حسن، وهو: ثلاثة بيوت، بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره، وليس فيه جواهر الملك وذخائره، وبيت خالٍ صفرٌ لا شيء فيه، فجاء اللص ليسرق من أحد البيوت، فمن أيها يسرق؟



فإن قلت: من البيت الخالي كان محالاً؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يُسرق، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنهما: «إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها»، فقال: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟!».

وإن قلت: يسرق من بيت الملك، كان ذلك كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس واليَزَكِ[1] ما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه؟! وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟! فلم يبقَ للص إلا البيت الثالث، فهو الذي يشنُّ عليه الغارة، فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، ولينزله على القلوب، فإنها على منواله.

فقلبٌ خلا من الخير كله، وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك بيت الشيطان، قد أحرزه لنفسه واستوطنه، واتخذه سكناً ومستقراً، فأي شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه؟!

وقلب قد امتلأ من جلال الله عز وجل وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه، فأي شيطان يجترئ على هذا القلب؟! وإن أراد سرقة شيء منه، فماذا يسرق؟! وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفة ونهبة تحصل له على غرَّةٍ من العبد وغفلة لا بد له منها، إذ هو بشر، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع.

وقلب فيه توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته، والإيمان به، والتصديق بوعده ووعيده، وفيه شهوات النفس وأخلاقها، ودواعي الهوى والطبع.

(١) اليَزَك: كلمة فارسية، معناها: طلائع الجيش.



وقلب بين هذين الداعيين، فمرَّةً يميل بقلبه داعي الإيمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده، ومرَّةً يميل قلبه إلى داعي الهوى والشيطان والطباع، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع، وله عنه منازلات ووقائع، ويعطي الله نصره لمن يشاء ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه، فيدخل الشيطان إليه فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأماني الكاذبة، وهي في القلب، فيدخل الشيطان فيجدها عنده، فيأخذها ويصول بها على القلب، فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان، تقاوم تلك العدة وتزيد عليها انتصف من الشيطان، وإلا فالدولة لعدوه عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فإذا أذن العبد لعدوه، وفتح له باب بيته، وأدخله عليه، ومكَّنه من السلاح يقاتله به، فهو المَلُوم.

آثار الحسنة

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوَّةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبَّةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله تعالى رداءه إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشَرٌّ».

وهذا أمر معلوم يشــترك فيه وفي العلم بــه أصحاب البصائر وغيرهم، حتى إن الرجل الطيب البر لتشــمُّ منه رائحة طيبة، وإن لم يمسَّ طيباً، فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس، والمزكوم الذي أصابه الهواء لا يشــم لا هذا ولا هذا، بل زكامه يحملــه على الإنــكار، فهذا فصل الخطــاب في هذه المسألة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

تأثير الصدقة

فإن للصدقة تأثيراً عجيبــاً في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مُقِــرُّون به، وفي الترمذي عــن معاذ بن جبل قال: كنت مع رسول الله ﷺ في ســفرٍ فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقال: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَــةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَــلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**»، ثُــمَّ تَــلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] [السجدة: ١٦].

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمَّا خطب النســاء يوم العيد: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ**

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣).



أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»[1]، وكأنه حثهنَّ ورغبهنَّ على ما يفدين به أنفسهن من النار، وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[2].

جزاء البخل

ولمَّا كان البخيل محبوساً عن الإحسان ممنوعاً عن البر والخير، كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيِّق الصدر، ممنوع من الانشراح، ضيِّق العَطَن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب.

فهو كرجل عليه جبة من حديد، قد جمعت يداه إلى عنقه، بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها.

وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه البخل، فيبقى قلبه في سجنه كما هو، والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلما تصدق اتسع وانفسخ وانشرح، وقوي فرحه وعظم سروره.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٢)، ومسلم (٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).



ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها، لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وكان عبد الرحمن بن عوف ـ أو سعد بن أبي وقاص ـ يطوف بالبيت وليس له دأب إلا هذه الدعوة: «ربِّ قني شُحَّ نفسي، ربِّ قني شُحَّ نفسي»، فقيل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: «إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي فقد أفلحتُ».

جزاءً وفاقاً

وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستِّيرٌ يحب من يستر على عباده، وعفوٌّ يحب من يعفو عنهم، وغفورٌ يحب من يغفر لهم، ولطيفٌ يحب اللطيف من عباده، ويبغض الفظَّ الغليظَ القاسي الجَعْظريَّ الجَوَّاظ، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبرٌّ يحب البر وأهله، وعدلٌ يحب العدل، وقابلٌ للمعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن حاقَقَ حاقَقَه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن تتبع عوراتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن



شاقَّ الله شاقَّ الله تعالى به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه.

ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله تَعَالَى عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوم القِيامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله تَعَالَى عَلَيْهِ حِسَابَهُ**»[1].

«**وَمَنْ أَقَالَ نَادِماً أَقَالَ الله تَعَالَى عَثْرَتَهُ**»[2].

«**وَمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ**»[3]، لأنه لما جعله في ظل الإنظار والصبر ونجّاه من حرِّ المطالبة وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجزه، نجّاه الله تعالى من حرِّ الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش، وكذلك الحديث الذي في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يوماً: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِيْنَ وَلَا تَتَبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيْهِ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ**»[4]، فكما تدين تدان، وكن كيف شئت، فإن الله تعالى لك كما تكون أنت له ولعباده، والمقصود أن الكريم المتصدق يعطيه الله ما لا يعطي البخيل

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٥٤)، وابن ماجه (٢١٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢).



الممسك، ويوسع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه وأسباب معيشته، جزاءً له من جنس عمله.

أثر الذكر

قال ﷺ: «**وَآمركُمْ أَنْ تَذْكُرُوا الله، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعاً حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِيْنٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ**»[(١)].

فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصْع[(٢)] وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس، أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس، أي: كفَّ وانقبض.

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك الذكر صدأ، فإذا ذُكِرَ جلاه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣).

(٢) الوَصْع: الصغير من العصافير.



صدأ القلب بأمرين

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة، والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار، والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لمَّا تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسودَّ وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً، وهذا أعظم عقوبات القلب، وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الاقتداء بالآخرين

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل، فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو هو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة وأمره فُرطٌ لم يقتد به ولم يتبعه، فإنه يقوده إلى الهلاك.

ومعنى الفُرُط قد فُسِّر بالتضييع، أي: أمرُهُ الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه، ضائعٌ قد فرَّط فيه.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده



كذلك فليبعد عنه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره، فليتمسَّك بغرزه.

ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت.

فوائد الذكر

وفي الذكر نحوٌ من مائة فائدة: فهو يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، ويرضي الرحمن ﷻ، ويزيل الهم والغم عن القلب، ويجلب للقلب الفرح والسرور والبسط، ويقوِّي القلب والبدن، وينوِّر الوجه والقلب، ويجلب الرزق، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورث المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم، ويورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت، ويورث الإنابة وهي الرجوع إلى الله ﷻ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله ﷻ مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه



وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا، ويورث القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عَجَلَّ يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه، ويفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلَّما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة، ويورث الهيبة لربه عَجَلَّ وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل، فإن حجاب الهيبة رقيقٌ في قلبه، ويورثه ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى به فضلاً وشرفاً.

وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[(١)].

ويورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

وهو قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرَّةً صلَّى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، لو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي. أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر. أو كلاماً هذا معناه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).



من فوائد الذكر

أنه يورث جلاء القلب من صداه، وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار، ويحط الخطايا ويذهبها؛ فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات، ويزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإن الغافل بينه وبين الله ﷻ وحشة لا تزول إلا بالذكر، وما يذكر به العبد ربه ﷻ من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكّر بصاحبه عند الشدة، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ ﷻ، مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَفَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا يُذَكِّرُ بِهِ؟**»(١).

وإنَّ العبد إذا تعرَّف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة، قالت الملائكة: يا رب، صوت معروف من عبدٍ معروفٍ، والغافل المعرض عن ذكر الله تعالى إذا دعاه أو سأله، قالت الملائكة: يا رب، صوت منكر من عبد منكر، وهو سبب نزول السكينة وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر، كما أخبر به النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٦٢)، وابن ماجه (٣٨٠٩).



من فوائد الذكر

أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره، تكلَّم بهذه المحرمات أو ببعضها، فلا سبيل إلى السلامة منه البتة إلا بذكر الله تعالى، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمن عوَّد لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطَّبَ بكل باطلٍ ولغوٍ وفحشٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليتخيَّر العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة، وأنه يسعد الذاكر بذكره ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أينما كان، والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته ويشقى به مُجالِسُه، وأنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة، وأنه أيسر العبادات، وهو من أجلِّها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرَّك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه، لشق عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك.

من فوائد الذكر

دوام ذكر الرب تعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده؛ فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب



نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها، فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره، وضيَّع مصالحه؛ فإنه يفسد ولا بد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها، وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها؟! فما شئت من فسادٍ وهلاك وخيبة وحرمان!

وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك، فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادها من هلاك البدن وفساده؟! وهذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح الأبد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها.

فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طـه: ١٢٤ ـ ١٢٦] أي تُنسى في العذاب كما نسيت آياتنا فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها.



وهذا عكسُ أهل السعادة، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، وفي البرزخ، ولهم في الآخرة أفضل الثواب، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في البرزخ والآخرة.

ولو لم يكن إلا ما يُجازى به المحسن: من انشراح صدره، وانفساح قلبه، وسروره، ولذته بمعاملة ربه ﷻ، وطاعته وذكره، ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه ﷻ، أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يُجازى به المسيء: من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتشتته وظلمته، وحزازته وغمه وهمه، وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسٍّ وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوباتٌ عاجلة ونارٌ دنيوية وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضى به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة حاضرة، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع بي أعدائي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.



وكان يقول في محبسه بالقلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. ونحو ذلك.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».



وقال آخر: «مســاكين أهل الدنيا، خرجوا منهــا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالــوا: وما أطيب ما فيهــا؟ قال: محبــة الله تعالى ومعرفته وذكره»، أو نحو هذا.

وقال آخر: «إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً».

وقال آخر: «إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشــبهه نعيم، وهو قرة عيون المحبين وحياة العارفين، وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله ﷻ، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يصدق بهذه الأمور مَنْ في قلبه حياة، وأما ميت القلب فاســتأنس بغيبته ما أمكنك؛ فإنه لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك وترحل عنه بقلبك، وفَارِقْهُ بسرِّك، ولا تشــتغل به عما هو أولى بك، واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجدي عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله ﷻ، وانقطاعك عنه وضياع وقتك عليك وشتات قلبك عليك وضعف عزيمتك وتفرُّق همِّك، فإذا بليــت بهذا ولا بد لــك منه، فعامــل الله تعالى فيه واحتســب عليه ما أمكنك وتقرَّب إلى الله بمرضاته فيه، واجعل



اجتماعك به متجراً لك لا تجعله خســارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل أوقفه عن سيره فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم تلقَ في سيره مطمعاً فلا تقف معه بل اركب الدرب ودعــه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطعُ طريقٍ، ولو كان مــن كان، فانْجُ بقلبك، وضــنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشــمس قبل وصول المنزلة فتؤخــذ، أو يطلع عليك الفجر وأنت في المنزلة، فيســير الرفــاق، فتصبح وحدك، وأنى لك بلحاقهم!!

من فوائد الذكر

أنه يسيِّر العبد وهو قاعد على فراشه وفي سوقه وفي حال صحته وســقمه، وفي حال نعيمه ولذته ومعاشــه وقيامه وقعوده واضطجاعه وسفره وإقامته، فليس في الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله، حتى أنه يسيِّر العبد وهو نائم على فراشه، فيسبق القائم مع الغفلة، فيصبح هذا وقد قطع الركب وهو مســتلق على فراشــه، ويصبح ذلك القائم الغافل في ساقة الركب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وحكي عن رجل من العُبَّاد أنه نزل برجل من العباد ضيفــاً، فقام العابد ليله يصلِّي، وذلك الرجل مســتلقٍ على فراشــه، فلما أصبحا قال له العابد: «ســبقك الركب، أو كما قال، فقال: ليس الشأن فيمن بات ليله مسافراً وأصبح مع الركب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب!».



وهذا ونحوه له محمل صحيح، ومحمل فاسدٌ، فمن حمله أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت فهو باطل.

وإنما محمله أن هذا المستلقي على فراشه علق قلبه بربه ﷻ وألصق حبة قلبه بالعرش، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة، قد غاب عن الدنيا وما فيها، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنع القيام، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه، أو غير ذلك من الأعذار، فهو مستلقٍ على فراشه، وفي قلبه ما الله أعلم به.

وآخر قائم يصلي ويتلو، وفي قلبه من الرياء والعجب وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ما الله به عليم، أو قلبه في وادٍ وجسمه في واد، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة، فالعمل على القلوب لا على الأبدان، والمُعَوَّل على الساكن لا على الأطلال، والاعتبار بالمحرك الأول، فالذكر يثير العزم الساكن، ويهيج الحب المتواري، ويبعث الطلب الميت.

من فوائد الذكر

أنه نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].



فالأول هو المؤمن: استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر هو الغافل عن الله تعالى: المعرضُ عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن، والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبي ﷺ يبالغ في سؤاله ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، حتى يقول: «**وَاجْعَلْنِي نُوْراً**»[1].

فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذاته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً، فدين الله ﷻ نورٌ، وكتابه نورٌ، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، والظلمات أشرقت لنور وجهه.

وقد ضرب الله ﷻ لنوره في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٧/٧٦٣).



وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصلـه في قلوبهم، ثم تقـوى مادته وتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهـم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكرون.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسـر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فـي قلوبهم في الدنيـا، فمنهم من نوره كالشـمس وآخر كالقمر وآخر كالنجم وآخر كالسـراج، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا كانـت هذه حال نوره في الدنيا فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

نور الأعمال على قدر الإيمان

وعلى حسـب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أعماله، ولها نورٌ وبرهانٌ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله ﷻ، وهكذا يكون نوره السـاعي بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نـور وجهه في يوم القيامـة، والله تعالى المستعان وعليه التكلان.



خُلّة القلب وفاقته

إن في القلب خُلَّةً وفاقةً، لا يسدها شيء البتة إلا ذكر الله ﷻ، فإذا صار الذكر شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبعٌ له، فهذا هو الذكر الذي يسدُّ الخلة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنياً بلا مالٍ، عزيزاً بلا عشيرة، مهيباً بلا سلطان، فإذا كان غافلاً عن ذكر الله ﷻ فهو بضدِّ ذلك، فقير مع كثرة جِدَته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته.

من فوائد الذكر

أنه يجمع المتفرق ويفرق المجتمع، ويقرب البعيد ويبعد القريب، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه وانفراطها له، والحياة كل الحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه وعزمه وإرادته، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره حتى تتساقط عنه فتتلاشى وتضمحل، ويفرق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سريةً بعد سرية، وكلما كان أقوى طلباً لله سبحانه وتعالى وأشد تعلقاً به وإرادة له، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر.



من فوائد الذكر

أنه ينبِّه القلب من نومه ويوقظه من سَنَته، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شدَّ المئزر، وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإنَّ الغفلة نوم ثقيل.

من فوائد الذكر

أن الذاكر قريب من مذكوره ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

والمعية الحاصلة للذاكر معيةٌ لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة، ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق.

من فوائد الذكر

أنه يَعْدِلُ عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله ﷻ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله ﷻ، وقد تقدم أَنَّ مَنْ قال في يوم مئة مرة: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ**

لَه، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مَائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مَائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزَاً مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِي...» الحديث[(١)].

من فوائد الذكر

إن في القلب قسوةً لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى، وذكر حماد بن زيد عن المعلى بن زياد أن رجلاً قال للحسن: «يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي»، قال: «أذبه بالذكر». وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ.

من فوائد الذكر

أنه أصل موالاة الله ﷻ ورَأْسُها، والغفلة أصل معاداته وأسُّها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه ﷻ حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه، وما استجلبت نعم الله ﷻ واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى، فالذكر جلَّابٌ للنعم دفَّاعٌ للنقم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١).



كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان.

من فوائد الذكر

أنه يوجب صلاة الله ﷻ وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣] فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى، ومن ملائكته إنما هي على الذاكرين له كثيراً، وهي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوا من الظلمات إلى النور، فأي خيرٍ لم يحصل لهم بذلك؟! وأي شرٍّ لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حُرموا من خيره وفضله، وبالله التوفيق.

من فوائد الذكر

أن الله ﷻ يباهي بالذاكرين ملائكته، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج معاوية عن حلقةٍ في المسجد، فقال: «ما أَجْلَسَكُم؟ قالوا: جلسْنَا نَذْكُر الله تعالى، قال: آللهِ مَا أَجْلَسَكُم إلّا ذاك؟ قالوا: والله ما أَجْلَسَنَا إلّا ذاك، قال: أما إنِّي لمَ أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من



رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً مني، وإنَّ رسول الله ﷺ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، ولَكِنَّه أَتَانِي جبريلُ فأخبَرَنِي أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ**»(١).

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليلٌ على شرف الذكر عنده ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال.

من فوائد الذكر

أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية، أو مالية، أو بدنية مالية: كحج التطوع، وقد جاء ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة أنَّ فقراء المهاجرين أَتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ذَهَبَ أهلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجَاتِ العلى والنعيمِ المُقيمِ، يُصَلُّونَ كَما نُصلِّي، ويَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، ولهُمْ فَضْلُ أمْوالٍ يَحُجُّونَ بها، ويَعْتَمِرُونَ، ويجاهِدُون، فقال: «**أَلَا أُعَلِّمُكُم شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مِنْ بَعْدَكُم، ولا أَحَدَ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْكُم إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تُسَبِّحُونَ وتَحْمَدُونَ وتُكَبِّرونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ...**» الحديث(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٩)، ومسلم (٥٩٥).



فجعل الذكر عوضاً لهم عمَّا فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر، فلما سمع أهل الدثور بذلك عملوا به، فازدادوا إلى صدقاتهم وعباداتهم بمالهم التعبد بهذا الذكر، فحازوا الفضيلتين، فنافسهم الفقراء، وأخبر رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم في ذلك، وانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الجمعة: ٤].

من فوائد الذكر

أنه من أكبر العون على طاعته، فإنه يحبِّبها إلى العبد ويسهِّلها عليه ويُلذِّذها له، ويجعل قرة عينه فيها ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك، يوضحه أن ذكر الله ﷻ يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذكر الله ﷻ على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسَّر، ولا مشقة إلا خفَّت، ولا شدَّة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر، والفرح بعد الغم والهم، يوضحه أن ذكر الله ﷻ يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله ﷻ، فإنه بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يحذرها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حسٍّ قد جرَّب هذا وهذا، والله المستعان.



من فوائد الذكر

أنه يعطي الذاكر قوةً، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يطيق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة أو أكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً، وقد علَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعلياً رضي الله عنهما أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبِّرا أربعاً وثلاثين، لمَّا سألته الخادم وشكت له ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلَّمها ذلك، وقال: «إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»[1].

فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في بدنه مغنية عن خادم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر أثراً في هذا الباب، وهو أن الملائكة لما أمروا بحمل العرش، قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فلما قالوها حملوه، وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمُّل المشاق، والدخول على الملوك، ومن يخاف، وركوب الأهوال.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).



من فوائد الذكر

أن كثرته أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله ﷻ، قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعب: مَنْ أكثر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق.

ولهذا ـ والله أعلم ـ ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ، فوقعوا في النفاق، وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج: أمنافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً.

من فوائد الذكر

أن في دوامه في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثير الشهود للعبد يوم القيامة، فإن البقعة والدار والجبل والأرض تشهد للذاكر يوم القيامة.

أفضل الذكر

وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيّج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الأثمار، وإن أثمر شيئاً منها فثمرته ضعيفة.



الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء؛ لأنه ثناء على الله ﷻ بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟! ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِيْنَ**»[(١)].

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى، والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته، كما في حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ عَجَّلَ هَذَا**»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ رَبِّهِ ﷻ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**»[(٢)].

فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرَّض بل صرَّح بشدَّة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه، وأوصاف المسؤول مقتضى من الله، فاجتمع

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/١١٥)، و«خلق أفعال العباد» (٥٤٤)، والبزار (١/٢٤٧) وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٦)، والترمذي (٣٤٧٧)، والنسائي (١٢٨٣).



المقتضي من السائل والمقتضى من المسؤول في الدعاء، فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفةً وعبوديةً.

وفي «الصحيحين»: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله! علّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً، وَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[1].

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية.

أيها أفضل: قراءة القرآن أو الذكر أو الدعاء؟

قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كلٍّ منهما مجرداً، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعيِّنُه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهيٌّ عنها نهي تحريم أو كراهة، وكذلك التسميع والتحميد في محلّهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك: «رب اغفر لي وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٨)، ومسلم (٢٧٠٥).

الذكر عقيب السلام من الصلاة ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة، وكذلك إجابة المؤذن والقول كما يقول أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه، لكن لكلِّ مقامٍ مقالٌ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره اختلت الحكمة وفاتت المصلحة المطلوبة منه.

وهكذا الأذكار المقيدة بحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن.

مثال ذلك: أن يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبةً واستغفاراً، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصِّنه وتحوطه، وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيها، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها اجتمع قلبه كله على الله تعالى، وأحدث له تضرُّعاً وخشوعاً وابتهالاً، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا بابٌ نافعٌ يحتاج إلى فقه نفس وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حق حقه، ويضع كل شيء موضعه، فللعين موضع وللرجل موضع وللماء موضع ولِلَّحْمِ موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله تعالى الموفق.



أيهما أنفع: التسبيح أو الاستغفار؟

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب في وقت، والتجمير وماء الورد أنفع له في وقت. قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يوماً: سئل بعض أهل العلم: «أيهما أنفع للعبد: التسبيح أو الاستغفار؟» قال: «إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له»، فقال لي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فكيف والثياب لا تزال دنسة؟!».

فقه مراتب الأعمال

ومن هذا الباب أن سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعِدَد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولمَّا كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه كانت أفضل من كلٍّ من القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جداً يفتح للعبد به باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح عليه إبليس الفضل الذي بينهما، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنِّه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً وأعظم أجراً.

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها، وفقهٍ في إعطـاء كلِّ عملٍ منها حقه وتنزيله فـي مرتبته، وتفويته ما هو أولـى منه وأفضل لإمـكان تداركـه والعود إليـه، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه فالاشتغال به أولى، وهذا كترك القراءة لردِّ السلام وتشميت العاطس، وإن كان القرآن أفضل؛ لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت، والله تعالى الموفق.





كتاب
إغاثة اللهفان







أقسام القلوب

في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميِّت: لمَّا كان القلب يوصف بالحياة وضدِّها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة.

فالقلب السليم: هو القلب الصحيح الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كلِّ شهوةٍ تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله ﷺ، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذُّلِّ له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذه هي حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده؛ فالقلب السليم: هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادةً ومحبةً وتوكلاً وإنابةً وإخباتاً وخشيةً ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل

من عدا رســوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمــام والاقتداء به وحــده دون أحد، في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلــب، وأعمال القلب وهــي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرســول صلى الله تعالى عليه وسلم لا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كمــا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجـرات: ١] أي: لا تقول حتى يقول، ولا تفعل حتى يأمر.

قال بعض الســلف: «ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ وكيف، أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟».

فالأول: ســؤال عن علة الفعــل وباعثه وداعيــه، هل هو حظٌّ عاجلٌ من حظــوظ العامل، وغرضٌ من أغــراض الدنيا في محبة مدح من الناس، أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجــل؟ أم الباعث على الفعل القيــام بحق العبودية وطلب التــودُّد والتقرُّب إلى الــرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوســيلة إليه؟ ومحل هذا السؤال أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظِّك وهواك؟

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد، أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟



فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله ﷻ لا يقبل عملاً إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع، فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

القلب الثاني: ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط، فهو متعبِّدٌ لغير الله حباً وخوفاً ورجاءً ورضاً وسخطاً وتعظيماً وذلاً، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، يُنادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتَّبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمُّه عما سوى الباطل ويعميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عَدُوٌّ لِمَنْ عادَتْ وسِلمٌ لأَهْلها ... ومَنْ قَرَّبتْ ليلى أَحبَّ وأَقْربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمدُّه هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله

تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والحرص والعجب وحبِّ العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن بين داعيين: داعٍ يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً وأدناهما إليه جوازاً.

فالقلب الأول: حيٌّ مخبتٌ ليِّنٌ واعٍ، والثاني: يابسٌ ميِّتٌ، والثالث: مريضٌ؛ فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى، وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

فجعل الله ﷻ القلوب في هذه الآيات الثلاثة قلبين مفتونين وقلباً ناجياً، فالمفتونان القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي، والناجي القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد.



وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، يتأتى منه ما هُيِّئَ له وخُلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة؛ إمَّا ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه كاليد الشلاء واللسان الأخرس والأنف الأخشم وذَكَرُ العِنِّين، والعين التي لا تبصر شيئاً، وإمَّا بمرضٍ وآفةٍ فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد، فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة، فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له، والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له، والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التَحَقَ بالميِّت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين وقوة للقلب الحي السليم، لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيماناً بالحق ومحبةً له وكفراً بالباطل وكراهة له، فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُوْداً عُوْداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيْهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى**



تَعُودَ القُلُوْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مرباداً كالكُوْزِ مُجَخِّياً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»[1]، فشبَّه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عُرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودَّ وينتكس، وهو معنى قوله: كالكوز مجخِّياً، أي: مكبوباً منكوساً، فإذا اسودَّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران مترامیان به إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تُعْرَض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات، وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).



المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل؛ فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

وقد قسَّم الصحابة رضي الله عنهم القلوب إلى أربعة كما صحَّ عن حذيفة بن اليمان: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر؛ فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف؛ فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس؛ فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما».

فقوله: قلب أجرد، أي: متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق، وفيه سراج يزهر وهو مصباح الإيمان، فأشار بتجرُّده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان.

وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى حاكياً عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه كقلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنَّة التي ضربها الله على قلوبهم عقوبةً لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله، فهي أكنَّة على القلوب، ووقرٌ في الأسماع، وعمًى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦] فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد المتابعة ولَّى أصحابها على أدبارهم نفوراً.



وأشـــار بالقلب المنكوس، وهو المكبوب إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨] أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شـرُّ القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطـل حقاً ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه ســراجه، حيث لم يتجــرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكــون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع.

حاجة القلب

القلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذي الضــار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واســتغفار غافـر الخطيئات، ومرضه نوع فساد يحصل له، يفســد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقــاً، أو يراه على خلاف ما هــو عليه، أو ينقض إدراكه له، وتفســد به إرادته لــه فيبغض الحق النافــع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب، ولهذا يفســر المرض الذي يعرض له تارة بالشــك والريب، كما قال مجاهد وقتادة في



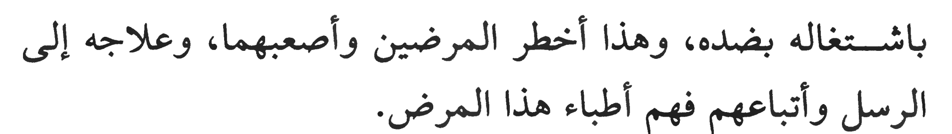
قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] أي شك، وتارة بشهوة الزنا كما فسَّر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فالأول: مرض الشبهة، والثاني: مرض الشهوة، والصحة تُحفظ بالمثل والشبه، والمرض يدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه ويزول بضده، والصحة تحفظ بمثل سببها، وتضعف أو تزول بضده، ولما كان بدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ما لم يتدارك ذلك، بأن يحصل له ما يقوي قوته ويزيل مرضه.

مرض القلب نوعان

مرض القلب نوعان:

النوع الأول: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يحسُّ بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له وهو متوارٍ عنه



باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال؛ كالهمِّ والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشفى بما يشفى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه.

الأمراض التي تزول بالأدوية

أمراض القلب التي تزول بالأدوية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت، وأما أمراضه التي لا تزال إلا بالأدوية الإيمانية النبوية، فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال شفى غيظه، فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإنَّ ذلك يزيد مرضه، ويوجب أمراضاً أخر، أصعب من مرض العشق.



وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر، ولم يَزُلْ، وأعقب أمراضاً هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب، فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه بسبب جهله بالعلوم النافعة التي هي شرط في صحته وبُرْئه، قال النبي ﷺ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»(١)؛ فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاكُّ في الشيء المرتابُ فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثَلَجَ صدرُهُ وحصل له برد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدى والعلم، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والمقصود أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٦).



الحياة والنور مادة الخير

أصلُ كلِّ خيرٍ وسعادةٍ للعبد بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فجمع بين الأصلين الحياة والنور، فبالحياة تكون قوّته، وسمعه، وبصره، وحياؤه، وعفته، وشجاعته، وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح بحسب حياته في نفسه؛ فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عُرضت عليه القبائح نَفَر منها بطبعه، وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر».

كذلك القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]،



فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن الأمرين؛ فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: أَوَمَنْ كان كافراً ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل، فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حياً بعد موته مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته.

وصلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين: (الحياة والنور)، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا الله ورسوله إليه من العلم والإيمان، فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك، وشبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحاً كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة



الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خصَّ بها سبحانه مَنْ قبِلَ وحيه وعمل به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فخصَّهم ﷻ بالحياة الطيبة في الدارين، فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر.

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كلِّ خيرٍ فيه، وموته وظلمته مادة كلِّ شرٍّ فيه.

قوتان في القلب

لما كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل، فمن لم يعرف الحق، فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه، فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه، فهو مُنعَم عليه.

وقد أمرنا الله ﷻ أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان



النصارى أخص بالضلال؛ لأنهم أمة جهل، واليهود أخص بالغضب؛ لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم، ولهذا قال سفيان بن عيينة: مَنْ فَسَد من عُبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارى، ومَنْ فَسَد من علمائنا ففيه شبهٌ من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوّتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضدِّه؛ فالإنسان حارث همَّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[(١)]، فالحارث: الكاسب العامل، والهمَّام: المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مراداً يكون متصوراً لها متميزاً عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته وأرادته ولا بد، وهذا يتبين بالباب الذي بعده.

معرفة المنافع والمضار

معلوم أن كلَّ حيٍّ ـ سوى الله سبحانه ـ من ملك أو أنس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك له إلا بتصور النافع والضار، والمنفعة من جنس

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠).



النعيم، واللذة والمضرة من جنس الألــم والعذاب، فلا بد له من أمرين: أحدهما: معرفة ما هو المحبــوب المطلوب الذي ينتفع به ويلتذُّ بإدراكه، والثاني: معرفة المعيــن الموصل المحصل لذلك المقصود، وبإزاء ذلك أمران آخران: أحدهما: مكروه بغيض ضار، والثاني: معين دافع له عنه، فهذه أربعة أشياء:

أحدها: أمر محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان لا يَقُوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فــإذا تقرر ذلك، فــالله تعالى هــو الذي يجــب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، الذي يراد وجهه ويُبتغَى قربه ويطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك، وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار، والله هو المعين على دفعه.

فهو ســبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما ســواه؛ فهو المعبود المحبوب المــراد، وهو المعين لعبده علــى وصوله إليه وعبادته له، والمكروه البغيض إنما يكون بمشــيئته وقدرته، وهو المعين لعبده على دفعه عنــه، كما قال أعرف الخلق بــه: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَــخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ**



مِنْكَ»[1]، وقال: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»[2]، فمنه المنجى وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

تعلق العبد بما سوى الله تعالى

تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرَّةٌ عليه إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته غير مستعين به على طاعته، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضرَّه ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب فلا بد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحب لغير الله فلا بد أن تضرَّه محبته ويعذب بمحبوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين، قال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

والصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبِّيها ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همِّه، وهو حريص بجهده على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب كقوله ﷺ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ**»[١]، وقوله: «**إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»[٢]، أي: يتألم ويتوجع، لا أنه يعذب بأعمالهم.

وهكذا مَن الدنيا كلُّ همِّه أو أكبرُ همِّه، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رضي الله عنه: «**مَنْ كَانَت الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَت الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٩)، ومسلم (١٩٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٥٠٨).
(٣) سنن الترمذي (٢٤٦٥).



ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشـتيت الشمل، وتفريق القلب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبّها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضـاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عـن النبي ﷺ قال: **«يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُـدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُـغْلاً وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»**(١)، وهذا أيضاً من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمُّل أنكاد الدنيا، ومحاربة أهلهـا إياه، ومقاسـاة معاداتهم، كما قال السلف: من أحب الدنيا فليوطِّن نفسه على تحمُّل المصائب.

ومُحِـبُّ الدنيا لا ينفكُّ من ثـلاثٍ: هَـمٍّ لازم، وتعبٍ دائم، وحسرةٍ لا تنقضي، وذلك أن محبَّها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسـه إلى ما فوقه، كما فـي الحديث الصحيح عـن النبي ﷺ: **«لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثاً»**(٢).

أثر العشق على صاحبه

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهل الدنيا بها فتأمل حال عاشقٍ فانٍ في حبِّ معشوقه، كلما رام قرباً من معشوقه نأى عنه، ولا يفي له، ويهجره، ويصل عدوَّه، فهو مع معشوقه في أنكد عيش، يختار

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٦٦)، ورواه ابن ماجه في «سننه» (٤١٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلوُّن، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه، ولا يجد سبيلاً إلى سلوةٍ تريحه، ولا وصالٍ يدوم له، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذباً بنفس ما كان ملتذاً به، على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده؟!

فإذا كان يوم المعاد ولَّى الحَكَمُ العدلُ سبحانه كلَّ محبٍّ ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه إما منعماً أو معذباً، يُمثَّل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ يقول: «**أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ**»، ويصفَّح له صفائح من نار، يكوى بها جبينه وجنبه وظهره[1].

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله تعالى جمع الله بينهما في النار، وعُذِّبَ كلٌّ منهما بصاحبه، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وأخبر سبحانه أن الذين توادوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضاً، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين؛ فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟ وقال ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2]، وقال الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣)، ومسلم (٩٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، ومسلم (٢٦٤١).



﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم».

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، فقرن كل شكل مع شكله، وجعل معه قريناً وزوجاً: البر مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود أن من أحب شيئاً سوى الله عز وجل فالضرر حاصل له بمحبوبه إن وجد، وإن فقد فإنه إن فقده عذب بفواته، وتألَّم على قدر تعلق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فواته أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الهَوَى حُلْوَ المَذَاقِ
تَـرَاهُ بَاكِيـاً فِـي كُلِّ حَـالٍ ... مَخَافَـةَ فُرْقَـةٍ أَوْ لاشْـتِيَاقِ
فَيَبْكِـي إِنْ نَأَوْا شَـوْقاً إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَـوْا حَذَرَ الفِـرَاقِ
فَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ التَّلَاقِي ... وَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ الفِـرَاقِ

اعتماد العبد على المخلوق

اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمَّله منه، فلا بد أن يُخذل من

الجهة التي قَدَّر أن يُنصر منها، ويُذم من حيث قَدَّر أن يُحمد، وهذا أيضاً كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، أي: يغضبون لهم ويحاربون كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق سبحانه، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

إحسان الله تعالى وإحسان المخلوقين

إن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعته إليه من العبد ولا لدفع مضرة، بل رحمةً منه وإحساناً، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه، ولا لينفعوه كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١].



فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمةً ومحبةً لهم، وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلةً وطريقاً إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معارضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه.

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمُّل منّته، فتدبر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله ﷻ، أو تطلب منه نفعاً أو دفعاً، أو تعلّق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبَّهم لحبِّ الله، ولم يحبَّهم مع الله تعالى، كما قال أولياء الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

والعبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يُقدِره الله تعالى عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه، وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلُّق القلب بغيره رجاءً وخوفاً وتوكلاً وعبوديةً ضررٌ محضٌ لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قدَّرها ويسَّرها، وأوصلها إليك.

وغالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو



بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لا لمنفعة، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلّق أملك ورجاءك، وخوفك بغيره؟!

وجِماع هذا أن تعلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

القرآن شفاء

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاءٌ للنوعين:

ففيه من البيّنات والبراهين القطعية ما يبيِّن الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً، فهو

الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محباً للرشد مبغضاً للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح الإرادة، ويعود إلى فطرته التي فُطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه ويثبّت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاجٌ إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى وصوله إلى



ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شـيء منه من غيره فهو نزر يسـير لا يحصل له به تمام المقصود، وكذلـك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذٍ يقال: زَكَا الزَّرْعُ وَكَمُلَ.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بدٌّ من ذكر هذا وهذا.

فوائد غض البصر عن المحارم

غضُّ البصر عـن المحـارم يوجب ثلاث فوائـد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركـه لله تعالى، فإن من ترك شـيئاً لله عوضه الله ﷻ خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرَّك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوْمـاً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ... وَلَا عَـنْ بَعْضِهِ أَنْـتَ صَابِرُ

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلـب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسـراته، فإنَّ النظر يولِّد المحبة، فتبـدأ علاقة يتعلق بها القلـب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة، ينصبُّ إليه القلب بكُلِّيَّته، ثم تقوى فتصير



غراماً، يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيُّماً، والتتيُّم: التعبُّد، ومنه تيَّمَهُ الحبُّ إذا عَبَّده، وتَيْمُ اللهِ: عبد الله، فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له، وهذا كله جناية النظر، فحينئذٍ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مُطلقاً، يتظلم من الطرف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني.

وهذا إنما تبتلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبَّد قلبه لغيره، قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصاً لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شاباً عزباً غريباً مملوكاً.

الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة، قال أبو شجاع الكرماني: «مَنْ عَمَرَ ظاهره باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وغضَّ بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة».

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرِّسون



الذين سلِموا من النظر المحرم والفاحشة، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وسرُّ هذا أن الجزاء من جنس العمل، فمن غضَّ بصره عما حَرَّم الله ﷻ عليه عوَّضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضّه عن المحرمات، وهذا أمر يحسُّه الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون عمله وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة في غض البصر: قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله»، ولهذا يوجد في المتَّبع هواه من ذُلِّ النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العزَّ لمن أطاعه، والذلَّ لمن عصاه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب والعمل الصالح.



وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال، فإن ذلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبى الله ﷻ إلا أن يُذِلَّ مَنْ عصاه».

وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه، ولا يَذِلُّ من والاه ربُّه، كما في دعاء القنوت: «**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ**»(١).

القلب الطاهر والقرآن

القلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذَّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهِّره الله تعالى، فإنه يتغذَّى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح، ودلَّت الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١] على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لمَّا لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق لم يحصل لها الطهارة، ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بدَّ أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرَّم الله ﷻ الجنة على

---

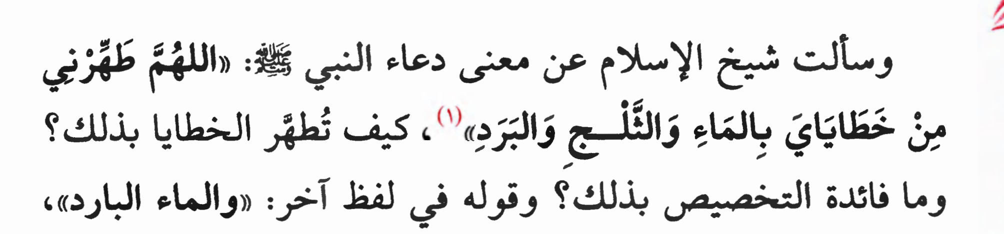
(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥، ١٧٤٦)، وابن ماجه (١١٧٨).



مَنْ في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهارته، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي ادخلوها بسبب طيبكم؛ فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا، ولقي الله تعالى طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جاوزوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصَّرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيِّب وطاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِيْنَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِيْنَ**»[1]، فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

(١) جزء من حديث: أخرجه الترمذي (٥٥).



وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ**»[1]، كيف تُطهَّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر: «**والماء البارد**»، والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارةً ونجاسةً وضعفاً، فيرتخي القلب، وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجِّسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمدُّ النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفئ النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبَرَد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدَّته، فكان أذهب لأثر الخطايا.

هذا معنى كلامه وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

الأمور الحسية والمعنوية

اعلم أن ههنا أربعة أمور: أمران حسِّيَّان، وأمران معنويَّان:

فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسِّيَّان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويَّان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا، فذكر النبي ﷺ من كل شطر قِسماً نبَّه به على الأربعة في غاية الاختصار وحسن البيان، كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).



من المتطهرين»، فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة، وحاجة المسافر إلى الله سبحانه إلى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد وإلى من يدلُّه على الطريق الموصل إليها.

وكذلك السداد، وهو إصابة القصد قولاً وعملاً، فمثله مثل رامي السهم إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه؛ فقد سدد سهمه، وأصاب، ولم يقع باطلاً، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه، وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا.

فمنه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فأمر الحجاج بأن يتزوَّدوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبَّههم على زاد سفر الآخرة وهو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، فنفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو مُنعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.



ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أَرَتْهُ النسوةَ اللائمات لها في حبِّه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، فأرتهن جماله الظاهر، ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فأخبرت عن جماله الباطن بعفَّته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبَّه ﷺ بقوله: «**اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**» على شدَّة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا أنه ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غُفْرَانَكَ**»[1]. وفي هذا من السرِّ ـ والله أعلم ـ أن النَّجْوَ يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضرَّان بالبدن والقلب، فحَمِدَ الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه وخفة البدن وراحته، وسَأَلَ أن يخلِّصه من المؤذي الآخر، ويريح قلبه منه ويخففه، وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال.

الأعيان النجسة وأثرها على القلب

الأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب أو تؤذيهما معاً، والنَّجَسُ قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وابن ماجه (٣٠٠).



والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحيِّ ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها كما يتأذى من شمِّ رائحة النتن، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقِه حتى ليوجد لرائحة عرقه نتناً، فإن نتن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، والعرق يفيض من الباطن، ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق، وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقاً، قالت أم سليم وقد سألها رسول الله ﷺ وهي تلتقطه: «**هُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ**»[1].

فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد، والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفةٍ وُجدتْ على وجه الأرض.

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له وأشدها مقتاً لديه، ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتِّبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداءً له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١).

عبيداً، وهذا لأن الشرك هضم لحقِّ الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظنٍّ بربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فلم يُجْمَعْ على أحد من الوعيد والعقوبة ما جُمِع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحَّدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حقَّ قدره في ثلاث مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل به، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاتَهُ؟! قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

نجاسة الذنوب والمعاصي

نجاسة الذنوب والمعاصي لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله ﷻ، ولهذا لم يرتب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك، وهكذا استقرت الشريعة على أنه يُعفى عن النجاسة المخفَّفة، كالنجاسة في محل الاستجمار وأسفل الخف والحذاء أو بول الصبي الرضيع، وغير ذلك



ما لا يعفى عن المغلَّظة، وكذلك يُعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يَشُوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك.

فلو لقي الموحِّد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربَّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بإشراك، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي فلا تثبت معه، ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرهما من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدّاً، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، كما قال عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإن عشق الصور المحرمة نوع تَعَبُّدٍ لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيُّماً، والتتيُّم: التعبد فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه والسعي في مرضاته وإيثار حبه على حب الله وذكره والسعي في مرضاته، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور كما هو مشاهد،



فيصير المعشـــوق هو إلهه من دون الله ﷻ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله تعالى، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من ســـخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه حباً وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعةً.

العشق والشرك متلازمان

العشق والشـــرك متلازمان، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشـــركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيـــز، وكانت إذ ذاك مشـــركة، فكلما قوي شرك العبد بُلِيَ بعشـــق الصور، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه، والزنـــا واللواط كمال لذتهما إنما يكون مع العشـــق، ولا يخلو صاحبهما منه، وإنمـــا لتنقُّله من محل إلى محل لا يبقى عشـــقه مقصوراً على محلٍ واحد، بل ينقســـم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألُّهه وتعبُّده.

وليس في الذنوب أفســـد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب مـــن الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً، ولهذا قال المســـيح فيما رواه الإمام أحمد في كتـــاب الزهد: «لا يكون البطالـــون من الحكماء، ولا يلج الزناة ملكوت السماء»، ولما كانت هذه حال الزنا كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].



أعضاء البدن وأفعالها

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خُلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كلَّ حظٍّ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خالياً عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد، فيصير معذباً بنفس ما كان منعماً به من جهتين: من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله أحبَّه وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث، وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب، وتعوَّضت بمحبة غيره.



مرض القلب

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام!

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه، وتارة يوطّن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس! فلي بهم أسوة.

وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم، فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده؛ إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين



والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فتفرُّدُ العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

والمقصود: أن من علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شافٍ، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

من علامات صحة القلب

من علامات صحة القلب: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُوْرِ**»[1]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الدنيا قد ترحَّلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحَّلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»، وكلما صح القلب من مرضه ترحّل إلى الآخرة، وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل، آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤).



ومن علامات صحته

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذكره قوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربُّه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدَّت تلك الفاقة؛ فإن في القلب فاقةً لا يسدُّها شيء سوى الله تعالى أبداً، وفيه شعث لا يلمُّه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، وتصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر.

قال بعض العارفين: «مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته».

وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».



وقال آخر: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبَّته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته».

ومن علامات صحته

ومـن علامات صحـة القلـب: أن لا يفتر عن ذكـر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدلُّه عليه، ويُذكِّره به ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فات ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل فـي الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرة عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همُّه واحداً، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بماله.

ومن علامة صحته: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمـل، فيحـرص على الإخـلاص فيـه والنصيحـة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّة الله عليه فيه وتقصيره في حقِّ الله.



القلب الصحيح

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همُّه كله في الله، وحبُّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، وقرة عينه به وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفةً له وذوقاً لا تكلفاً، فيأتي بها تودداً وتحبباً وتقرباً، كما يأتي المحبُّ المقيم في محبته ومحبوبه بخدمته وقضاء أشغاله، فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقاً ينطق: (لبيك وسعديك إني سامع مطيع ممتثل ولك عليَّ المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك)، وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقاً يقول: (أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبِّرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقويني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك). فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكرهه، قال: رحمةٌ أُهْدِيَتْ إليَّ، ودواءٌ نافعٌ من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحبُّه، قال: شرٌّ صُرِفَ عنِّي.



النفس قاطعة بين القلب والوصول إلى الرب

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها، فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعاً لهم، منقادة لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

الجوارح السبعة

جوارح الإنسان السبعة: (العين والأذن والفم واللسان والفرج واليد والرجل)، هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]،



وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذهِبَ رأس المال كله، فمتى أحسَّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذٍ يتبيَّن له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحسَّ بالخسران وتيقَّنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله، ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيه اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً، ويعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها، يمكن أن يُشْترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن:



﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

محاسبة النفس نوعان

محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده، فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رحم الله عبداً وقف عند همه؛ فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهمَّ به العبد وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخفَّ عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد



بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل، فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدوراً له، ولا كل ما يكون مقدوراً له يكون فعله خيراً له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيراً من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعل لله يكون معاناً عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور تقدمت وهي: (الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منَّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله)، فيحاسب نفسه: هل وفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد، لمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.



وأضرُّ ما عليه: الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض عينيه عن العواقب، ويتساهل ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحِمْية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

وجِمَاع ذلك أن يحاسب نفسه على الفرائض، فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسب نفسه على ما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه، ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أيِّ وجهٍ فعلته؟ ويعلم أنه لا بد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وديوان كيف فعلته؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالكاذبين؟

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير: «يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟».



وقال قتادة: «إن الله سائل كلَّ عبدٍ عمَّا استودعه من نعمه وحقه».

والنعيم المسـؤول عنه نوعان: نوع أُخذ من حلِّه وصرف في حقه، فيسـأل عن شـكره، ونوع أخذ بغير حلِّه وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسـؤولاً ومحاسـباً على كل شيء حتى على سـمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسـراء: ٣٦]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقـد دل على وجوب محاسـبة النفس قولـه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشـر: ١٨] يقول تعالـى: لينظر أحدكـم ما قدم ليـوم القيامة مـن الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

مصالح محاسبة النفس

في محاسبة النفس عدة مصالح: منها الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطَّلع على عيب نفسه لم يمكن إزالته، فإذا اطَّلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتـى يمقت الناس فـي جنب الله، ثم يرجع إلى نفسـه



فيكون لها أشـدَّ مقتاً». وقال مطرف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسـي لقليت الناس». وقال مطرف في دعائه بعرفة: «اللهم لا تردَّ الناس لأجلي». وقال بكر بن عبد الله المزني: «لمَّا نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنِّـي كنتم فيهم». وقال أيوب السـختياني: «إذا ذُكر الصالحون كنت عنهم بمعزل». ولمَّا احتضر سـفيان الثوري دخل عليه أبو الأشـهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: «يا أبا عبد الله، أليس قد أمنت مما كنت تخافه؟ وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سـلمة، أتطمع لمثلي أن ينجوَ مـن النار؟ قـال: إي والله، إني لأرجو لـك ذلك». وقال يونس بن عبيد: «إنِّي لأجد مئة خصلةٍ من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسـي منها واحدة». وقال محمد بن واسـع: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إليَّ».

فالنفس داعية إلـى المهالك، معينة للأعـداء، طامحة إلى كلِّ قبيح، متبعة لكلِّ سوء.

مقت النفس في ذات الله تعالى

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصدِّيقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعـاف أضعاف ما يدنو بالعمل، فمن أنفع ما للقلـب النظر في حق الله على العبـاد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها، ويخلِّصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربِّه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه



أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يكفر، فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِمَ علْمَ اليقين أنه غير مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك، فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم، وعلَّق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضدِّ ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن ههنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه ونفسه.

فمحاسبة النفس: هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانياً، وأفضل الفكر: الفكر في ذلك؛ فإنه يُسيِّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلاً خاضعاً منكسراً كسراً فيه جبره، ومفتقراً فقراً فيه غناه، وذليلاً ذلّاً فيه عزُّه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل، فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى.

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه: أن لا يتركه ذلك يُدِلُّ بعمل أصلاً كائناً ما كان، ومن أدَلَّ بعمله لم يصعد إلى الله تعالى.

علاج مرض القلب من الشيطان

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب، وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسَّعوا في ذلك، وقصَّروا في هذا الباب.



ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، واللوّامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شرَّ النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه، وموضع شرِّه، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرِّها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «**وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ شُرُوْرِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»(١).

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علِّمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قُلْ: اللهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيْكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوْءاً أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤، ٣٢٧٧)، وابن ماجه (١٨٩٢).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٩٢)، وليس فيه قوله: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم»، ورواه أبو داود (٥٠٦٧).



فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله؛ إما أن يصدر من النفس، أو من الشيطان، وغايته إما أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما، فأمره سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب ما يلقيه فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أثَّره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويُخلِي منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه ويؤثر فيه، فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مُزاحمٍ ومضادٍّ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها، وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لَاحَظَ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظٌ جيِّدٌ، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصل للأمرين.



ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ، ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح فقال ﷺ: «**تِلْكَ المَلَائِكَةُ**»[(١)]، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره، وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمره عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى، واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيَّته، والسلف كلهم على أن المعنى إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟! ولهذا يغلِّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوِّشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوِّش عليه ذهنه وقلبه،

(١) أخرجه مسلم (٧٩٦)، وذكره البخاري (٥٠١٨) تعليقاً.



فإذا حضر عند القراءة لـم يعدم منه القارئ هـذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه، فهو يشـتد عليه حينئـذٍ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ شَـيْطَانَاً تَفلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي**»[١]، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر، وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِيْنَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَالفَرَسِ فِي الطِّـوَلِ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَـهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَقَالَ: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ، وَيُقَسَّمُ المَالُ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**»[٢]، فالشـيطان بالرَّصَد للإنسان على طريق كل خير.

ومنها: أن الاسـتعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيَّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسـامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السـامع الاستعاذة اسـتعد لاسـتماع كلام الله تعالى،

(١) أخرجه البخاري (٤٦١، ١٢١٠)، ومسلم (٥٤١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٤٣٢٧).



ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق: بالاستعاذة، والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان، وأخبر عن عظم حظِّ من لقَّاه بذلك، فإنه ينال بذلك كفَّ شرِّ عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغل والحقد، غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه، وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النَّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مَرْكَبَ الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمرَ أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمدُّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل فأبطل سلطان الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

من كيد الشيطان

ومن كيد الشيطان للإنسان: أنه يورده الموارد التي يخيَّل إليه أن فيها منفعته، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه، ويقف يشمت به ويضحك منه، فيأمر بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وكقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]، وكقوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فأوردهم شرَّ الموارد، وتبرَّأ منهم كل البراءة.

ومن كيده

ومن كيد عدو الله تعالى له: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والمعنى عند جميع المفسرين: يُخَوِّفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم.

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم.

ومن كيده

أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضرُّه حتى يخيَّل إليه أنه من



أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنَّع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بَهْرَجَ من الزيوف على الناقدين، وكم روَّج من الزَّغل على العارفين! فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام في قالب التقليد والاكتفاء بقول مَنْ هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس.

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أُغرقوا، وقوم عاد حين أُهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خسف بهم، وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عبَّاد



العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

وأول كيده ومكره أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

ومن كيده

أنه يُشامُّ النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها، قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقَّله عليه فهوَّن عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يقصِّر فيه ويتهاون به، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، لا يبالي بأيهما ظفر»، وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.



أثر الغناء على النساء

ولا ريب أن كل غيور يجنِّب أهله سماع الغناء كما يجنبهنَّ أسباب الريب، ومن طَرَّق أهله على سماع رُقية الزنا فهو أعلم بالإثم الذي يستحقه.

ومن الأمر المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يسمعها صوت الغناء، فحينئذٍ تعطي الليان؛ وهذا لأن المرأة سريعة للأصوات جداً، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين، من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديهِ: «**يَا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ، رِفْقاً بِالْقَوَارِيْرِ**»[1]. يعني النساء.

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية: الدف، والشبابة، والرقص بالتخنث والتكسر، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء.

من علامات عدم الوثوق بوعد الله تعالى

كثيرٌ من الناس يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أَذِلَّاء مقهورين مغلوبين دائماً، بخلاف من فارقهم إلى سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو يجعله معلقاً بالمشيئة، وإن لم يصرِّح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى،

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٩، ٦١٦١)، ومسلم (٢٣٢٣).



ومن سوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بيَّن في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وهذا كثير في القرآن.

وقد بين سبحانه فيه أن ما أصاب العبد من مصيبة أو إدالة عدوٍّ، أو كسرٍ، وغير ذلك فبذنوبه، فبين سبحانه في كتابه كلا المقدمتين، فإذا جَمَعْتَ بينهما تبيَّن لك حقيقة الأمر، وزال الإشكال بالكلية، واستغنيت عن تلك التكلفات الباردة والتأويلات البعيدة.

فقرر سبحانه المقام الأول بوجوه من التقرير منها ما تقدم، ومنها: أنه ذم من يطلب النصر والعزة من غير المؤمنين، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ۝٥٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ



وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦]، فأنكر على من طلب النصر من غير حزبه، وأخبر أن حزبه هم الغالبون.

ونظير هذا قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله من الكلم الطيب والعمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣]، أي: ويعطيكم أخرى فوق مغفرة الذنوب ودخول الجنة، وهي النصر والفتح.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، وقال تعالى للمسيح: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ

مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فلما كان للنصارى نصيبٌ ما من اتِّباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، وقال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣]، فهذا خطابٌ للمؤمنين الذين قاموا بحقائق الإيمان ظاهراً وباطناً.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة؛ لأنه ذكر عقيب قصة نوح ونصره وصبره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، أي: عاقبة النصر لك ولمن معك كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه.

وكذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال إخباراً عن يوسف عليه السلام أنه نُصر بتقواه وصبره فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقان: هو العز والنصر والنجاة



والنور الذي يفرِّق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فهذا في المقام الأول.

وأما المقام الثاني: فقال تعالى في قصة أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

ولهذا أمر الله سبحانه رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى، وأمر بانتظار وعده، وهو المقدمة الثانية، وأمر بالاستغفار والصبر؛ لأن العبد لا بد أن يحصل له نوع تقصير وسرف يزيله الاستغفار، ولا بد في انتظار



الوعد من الصبر؛ فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وقد جمع الله سبحانه بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه قصص الأنبياء وأتباعهم، وكيف نجَّاهم بالصبر والطاعة، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

أصول نافعة

وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة:

الأصل الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعوَّلهم على الصبر وعلى الاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته؛ فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبَّه تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]،



فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه، بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله تعالى عن عبده المؤمن، فإنه يدفع عنه كثيراً من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته وتبعته.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكَّنت في القلب ورسخت فيه كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك.

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، فإن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذلَّ من عصاه».

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه، كما قال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً**

إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ»(١).

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته، ولهذا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب، يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقَّة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة.

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه وغلبته له وأذاه له في بعض الأحيان أمر لازم لا بد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالماً غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).



الله ﷻ، فمنهـا: اسـتخرج عبوديتهـم وذلهم لله وانكسـارهم له وافتقارهم إليه وسـؤاله نصرهـم على أعدائهم، ولـو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحـق دولة، فاقتضت حكمـة أحكم الحاكميـن أن صرفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة، فـإذا غُلِبوا تضرَّعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا إليه، وإذا غَلَبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانـوا دائما منصورين غالبيـن قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانـوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد، فاقتضـت الحكمة الإلهية أن كانت لهـم الدولة تارة وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفـي إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سـبحانه على العباد في كلتا الحالين عبوديـة بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبـدان إلا بالحـر والبرد والجـوع والعطش والتعـب والنصب وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.



ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحِّصهم ويخلِّصهم ويهذِّبهم كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٤]، فذكر سبحانه أنواعاً من الحكم التي من أجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبَّتهم وقوَّاهم وبشَّرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلَّاهم بأنهم وإن مسَّهم القرح في طاعته وطاعة رسوله ﷺ فقد مسَّ أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولاً بين الناس، فيصيب كلاً منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال، ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين فيعلم إيمانهم واقعاً، ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة، لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي أحبُّ الأشياء إليه وأنفعها للعبد، ثم أخبر



سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي: تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم، فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع: أنه ﷻ إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريد ما عنده ممَّن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، فالناس إذا أرسل إليهم، بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت أو لا يؤمن، بل يستمر على السيئات والكفر، ولا بد من امتحان هذا وهذا، فأما من قال آمنت فلا بد أن يمتحنه



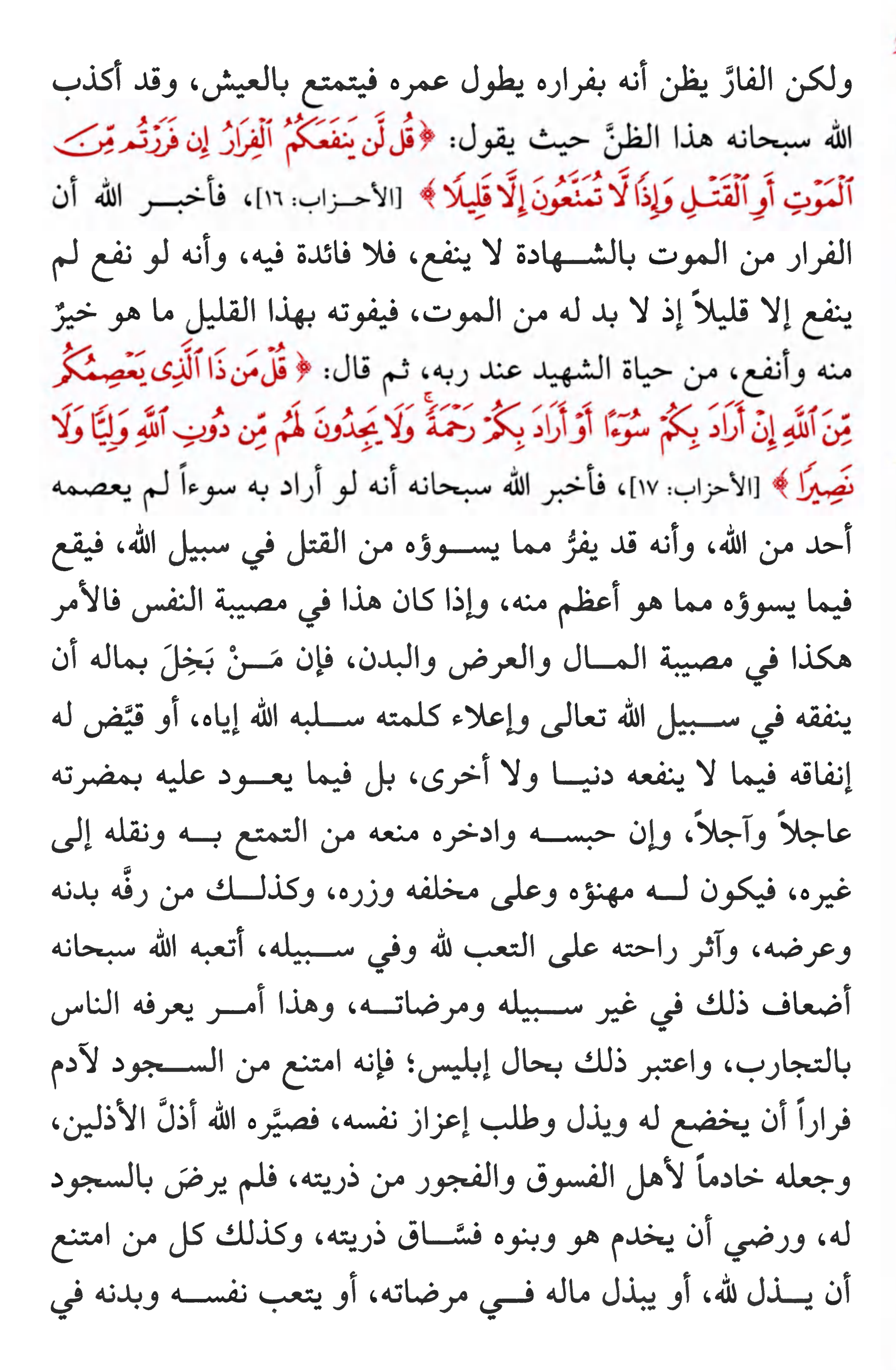
الربُّ ويبتليه ليتبيَّن: هل هو صادق في قوله آمنت أو كاذب؟ فإن كان كاذباً رجع على عقبيه وفرَّ من الامتحان كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقاً ثبت على قوله، ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيماناً على إيمانه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأما من لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوبتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم، فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل أحد، ولكن المؤمن أخفُّ محنةً وأسهلُ بليةً، فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يهون به عليه محنته، وأما الكافر والمنافق والفاجر فتشتد محنته وبليته وتدوم، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة، فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعيم ابتداء، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة.

الأصل العاشر: أن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم،



ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقادهم وإرادتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم، واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور أو المعاونة على محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فراراً من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فرَّ منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم، فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد، فألم يسير يعقبه لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعْقِبُ ألماً عظيماً دائماً، والتوفيق بيد الله.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب، والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألُّمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يُبتلى به العبد في الله، وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس، ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها،



ولكن الفارَّ يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظنَّ حيث يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]، فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خيرٌ منه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه، ثم قال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفرُّ مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن مَنْ بَخِلَ بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سلبه الله إياه، أو قيَّض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه من التمتع به ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه، وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب، واعتبر ذلك بحال إبليس؛ فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل وطلب إعزاز نفسه، فصيَّره الله أذلَّ الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرضَ بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فسَّاق ذريته، وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في



طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسـوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبةً له، كما قال بعض السلف: «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته».

محبة الرب

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها ووليُّها ومولاها وربها ومدبِّرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»، وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحبه له»، وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها»، وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».



ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل وإدراك المحبوب أتم والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى، فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وله أحب، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حباً لغيره ولا أنساً به، وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية وذلاً وخضوعاً، ورقّاً له وحرية عن رقٍّ غيره.

فلاح القلب وصلاحه

القلب لا يفلح ولا يصلح، ولا يتنعم ولا يبتهج، ولا يلتذ ولا يطمئن، ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقةً وقلقاً حتى يظفر بما خُلق له من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه، فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه، من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له، وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعُّم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحسَّ به لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به، وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه،



ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله، لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح كل باب، ولم يكن مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله، متيقناً أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يوصل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يعبد إلا بإعانته، ولا يطاع إلا بمشيئته ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

النفوس تصبو إلى ما يشاكلها

ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة، إنما يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، ينفر من المطالب العالية واللذة الكاملة، كما ينفر الجعل من رائحة الورد، وشاهدنا من يمسك بأنفه عند وجود رائحة المسك، ويتكره بها لما يناله بها من المضرة، فمن خُلق للعمل بالدباغة لا يجيء منه العمل في صناعة الطيب، ولا يليق ولا يتأتّى منه.





كتاب

الجواب الكافي





ما أنزل الله تعالى داءً إلا أنزل له دواءً

الحمد لله، أما بعد؛ فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»[1].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ**»[2].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[3]، وفي لفظ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِداً**» قَالُوا: يَا رَسُوْلَ اللهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**الْهَرَمُ**»[4].

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها، وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]،

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٧٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٠٤).

(٣) مسند أحمد (١٨٤٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٠١٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦).



و(من) هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله ﷻ من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم، ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: انطلقَ نفرٌ مِنْ أصحابِ النبيِّ ﷺ في سفرةٍ سَافَرُوها حتَّى نَزَلوا على حيٍّ مِنْ أحياءِ العَرَبِ، فاستَضَافوهم فَأَبَوْا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحيِّ، فسَعَوا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعه شيءٌ، فقال بعضهم: لو أتيتُمْ هَؤلاءِ الرَّهطَ الذين نزلوا، لعلَّه أن يكونَ عندَ بعضِهِم شيءٌ، فقالوا: يَا أيُّها الرَّهطُ، إنَّ سيِّدنا لُدغِ وسَعَينا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعه شيءٌ، فهَلْ عندَ أَحَدٍ منكم مِنْ شيءٍ؟ فقالَ بعضُهم: واللهِ إنِّي لأَرْقِي، ولكنْ واللهِ لقد استَضَفْناكم فلَمْ تُضَيِّفونا، فما أنا براقٍ لكم حتَّى تجعَلُوا لي جُعْلاً، فصالَحُوهم على قطيعٍ من الغَنَمِ، فانطلقَ يتفُلُ عليهِ ويقرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكأنَّما نُشِطَ مِن عقالٍ، فانطلَقَ يمشي وما به قَلَبة، فأوفوهم جُعْلَهم الذي صالَحُوهم عليه، فقالَ بعضُهم: اقتَسِموا! فقالَ الَّذي رَقَى: لا نفعَلُ حتَّى نأتيَ النبيَّ ﷺ فنذكُرَ له الذي كانَ، فننظُرَ مَا يأمُرُنا، فقِدَمُوا على رسولِ اللهِ ﷺ فذكَرُوا له ذلكَ فقالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**» ثم قال: «**قَدْ أَصَبْتُم، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً**»[1].

فقد أثَّر هذا الدواء في هذا الداء، وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).



تأثيراً عجيباً في الشفاء، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً.

من شرط العلاج قبول المحل وقوة همة الفاعل

ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة أثَّر في إزالة الداء، وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلَّف عنه أثره؛ إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو، وغلبتها عليها، كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن



النبي ﷺ قال: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[1]، فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته.

وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفه، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»[2].

الدعاء وأثره في الشفاء

الدعاء دواء من أنفع الأدوية، وشفاء من أعظم الأشفية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخفِّفه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن قد يخفِّفه وإن كان ضعيفاً.

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (١٨١٧)، والترمذي (٣٤٧٩).

(٢) صحيح مسلم (١٠١٥).



الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه، وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ البَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَلْقَاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[1]، ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء، وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[2].

مكونات إجابة الدعاء

وإذا جُمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة، وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقَّةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنَّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة وتملَّقه ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء

(١) مستدرك الحاكم (١٨١٥)، وأخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) سنن ابن ماجه (٣٧٢٧)، وأخرجه الترمذي (٣٣٧٣).

لا يكاد يُرَدُّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السِّرَّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنَتْهُ من ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع فظنَّ غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرَّده كافٍ في حصول المطلوب كان غالطاً، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس، ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل أن السِّرَّ للقبر، ولم يعلم أن السِّرَّ للاضطرار، وصدق اللجأ إلى الله، فإذا حصل ذلك في بيتٍ من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله.

الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدِّه فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحدٌ من هذه الثلاثة تخلَّف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.



سؤال وإجابته

وهاهنا سؤال مشهور، وهو: أن المدعوَّ به إن كان قُدِّر لم يكن بُدٌّ من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قُدِّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله؟ وجواب ذلك أن يقال: أن هذا المقدر قُدِّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجرَّداً عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأتِ بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قُدِّر الشبع والري بالأكل والشرب، وقُدِّر الولد بالوطء، وقُدِّر حصول الزرع بالبذر، وقُدِّر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قُدِّر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب، وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوِّه وكان أعظم جنده، وكان يقول لأصحابه: «لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء»، وكان يقول: «إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتم الدعاء، فإن الإجابة معه».



فإن الله سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومعصية في غضبه.

ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكلِّ خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع، ومن فقه هذه المسألة وتأمَّلها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ومن يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكُّله عجزاً وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقيه الذي يردُّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، وهكذا من وفَّقه الله وألهمه رشده، يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة.



أمران بهما سعادة العبد وفلاحه

ثمة أمران تتم بهما سعادة العبد وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرَّبه في نفسه وغيره، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة، ثم السُّنَّة؛ فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عياناً، وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسُّنَّة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرَّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

الأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب، وهذا من أهم الأمور؛ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة تارة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة، وبالاقتداء بالأكابر

تارة أخرى، وكثير من النـــاس يظنُّ أنه لو فعـــل ما فعل، ثم قال: أستغفر الله، زال الذنب وراح هذا بهذا.

وقال لي رجل من المنتســبين إلى الفقه: أنا فاعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مئة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[(١)].

وقال لي آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً، وقد محي عنه ذلك.

وقال لي آخر: قد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قـــال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَـــاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ اللهُ** ﷻ: **عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْـــبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَـــرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ**»[(٢)]. قال: وأنا لا أشكُّ أنَّ لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سـرد لك ما يحفظه من سـعة رحمـة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشـوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولـم يدرِ هذا المغترُّ أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).



صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفِّر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد، وهو مصرٌّ عليها غير تائب منها؟! هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير، فإذا لم يصرَّ على الكبائر ساعد الصوم وعدم الإصرار، وتعاونا على عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكياً عن ربه: «**أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(١)]، يعني ما كان في ظنه، فإني فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده ويقبل توبته، وأما المسيء المصرُّ على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيِّده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٠١٦).

أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل»، وكيف يحسن الظن بربه من هو شاردٌ عنه، حالٌ مرتحلٌ في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصرَّ عليه؟!

وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟! وكيف يحسن الظن بربه من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب؟!

وقد قال الله تعالى في حقِّ مَنْ شكَّ في تَعلُّق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السرُّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، وكان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان، لا إحسان ظن بربه، فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه.

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنه بأنه ملاقٍ الله، وأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، فإنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو



مقيمٌ على مساخطه مضيِّع لأوامره معطِّل لحقوقه؟! وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟!

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرِّقها، قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: «**مَا فَعَلْتِ؟ أَكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ دَنَانِيرَ؟**»، فقلت: لا، والله لقد شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه فقال: «**مَا ظَنُّ نَبِيِّ اللهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟**»[1]، وفي لفظ: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟**».

فيا لله، ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟! فإن كان ينفعهم قولهم حسَّنَّا ظنوننا بك أنك لن تعذب ظالماً ولا فاسقاً، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد! وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]، أي: ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٧٣٣).



حمله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز.

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن، فإن قيل: بلى يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو، قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، وإنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته؟! بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسن الظن بعدها، فهذا هو حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل؛ فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد، فَفَرْقٌ بين حسن الظن بالله، وبين الغرور به.

الاغترار بكرم الله تعالى وعفوه

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيَّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه



عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند له.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به؛ فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرَّةٍ، واشتعلت الشملة ناراً على من غلَّها وقد قُتل شهيداً.

وربما اتكل بعض المغترّين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغير ما به، ويظن ذلك أنه من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

قال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به.

وقد ردَّ سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]، أي: ليس كلُّ مَنْ نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيَّقتُ عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرور بستر الله وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.



الاغترار بالدنيا

وأعظم الناس غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخـــرة، حتى يقول بعض هؤلاء: «الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة». ويقول بعضهم: «ذرة منقودة، ولا درة موعودة». ويقول آخر منهم: «لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك».

وهذا من أعظم تلبيس الشـــيطان وتســـويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضُربت، وهؤلاء يقدم أحدهم علـــى عطبه، وهو بين مصدق ومكـــذب، فهذا الضـــرب إن آمن أحدهـــم بالله ورســـوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة؛ لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

فإن قلت: كيف يجتمـــع التصديق الجازم الذي لا شـــك فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلف العمل؟! وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرهه أتم كراهة، ويبيت ســـاهياً غافلاً لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته؟!

قيل: هذا لعمر الله ســـؤال صحيح وارد علـــى أكثر هذا الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشـــياء، وهذا التخلف له عدة أســـباب أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومـــن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفســـد الأقـــوال وأبطلها، وقد ســـأل إبراهيم



الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم غيباً شهادة، فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره وغيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطَّبع، وغلباتُ الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ضرر الذنوب والمعاصي

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الذنوب والمعاصي تضرُّ ولا بد، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟!

وما الـذي أخرج إبليس من ملكوت السـماء وطـرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه، فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشـنع، وبُدِّل بالقرب بعـداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحـاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمـان كفراً، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشـاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله تعالى غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السـقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسـق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟!

فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك، وارتكاب نهيك!

وما الذي غَـرَّق أهـل الأرض كلهم حتى عـلا الماء فوق رؤوس الجبال؟!

وما الذي سـلَّط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهـم أعجاز نخل خاوية، ودمَّرت ما مـرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة؟!

وما الذي أرسـل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟!

وما الذي رفع قـرى اللوطية حتـى سـمعت الملائكة نبيحَ كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً،



ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها؟! وما هي من الظالمين ببعيد!

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟!

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟!

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟!

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمَّرها تدميراً؟!

وما الذي أهلك قوم صاحب ياسين بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟!

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبَّروا ما علوا تتبيراً؟!

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؟!

أثر الذنب قد يتأخر

وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره، فينسى ويظن العبد أنه لا يُغَبِّر بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إِذَا لَمْ يُغَبِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوْعِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الوُقُوْعِ غُبَارُ

وسبحان الله كم أهلكت هذه النكتة من الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة! وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين، كما ينقض السم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدَّغل، وقد نظر بعض العباد إلى صبي فتأمل محاسنه فأتي في منامه وقيل له: لتجدن غبَّها بعد أربعين سنة، هذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: «إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته».

آثار الذنوب والمعاصي

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الشافعي بين يدي مالك، وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: «إنِّي أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية».



وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيْعٍ سُوْءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَال: اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِ

ومن آثار المعاصي

ومنها: حرمان الرزق، وفي المسند: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيْبُهُ**»(١)، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي.

ومن آثار المعاصي

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحسُّ به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام! فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريّاً بتركها، وليس على القلب أمَرُّ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان!

ومن آثار المعاصي

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك

---

(١) مسند أحمد (٢٢٣٨٦).



الوحشة بَعُدَ منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمٰن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً بنفسه، قال بعض السلف: «إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي».

ومن آثار المعاصي

ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسِّراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً، ويا لله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أُتِيَ!

ومن آثار المعاصي

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسُّ بها كما يحسُّ بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سواداً يراه كل أحد، قال عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه:



«إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنها توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وأما وهنها للبدن، فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر، فإنه وإن كان قوي البدن، فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم.

ومن آثار المعاصي

ومنها: حرمان الطاعة؛ فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرّاً، فينقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة، منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنَّها تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد، فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر، وقد اختلف الناس في هذا الموضع، فقالت طائفة: «نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه»، وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي، وقالت طائفة: «بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق»، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباباً تكثره وتزيده، قالوا: «ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب»، فالأرزاق والآجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر وإن كانت بقضاء الرب ﷻ، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها، وقالت طائفة أخرى: «تأثير المعاصي في محق العمر: إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب»، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]؛ فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة: فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].



ومن آثار المعاصي

ومنها: أنها تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: «إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها»، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضاً، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك وهلم جرّاً، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات، وكذلك كانت السيئات حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة، وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسَّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا نفس داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها.

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبُّها ويؤثرها حتى يرسل الله ﷻ برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزاً، وتحرِّضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبُّها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزاً، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد، فكانوا أعواناً عليه.

ومن آثار المعاصي

ومنها: وهو من أخوفها على العبد: أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية مصرٌّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدِّث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يُعافون ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرُوْنَ، وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ العَبْدَ، ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ، وَيَقُوْلُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَهْتِكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).



ومن آثار المعاصي

ومنها: أن كل معصية من المعاصي هي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل، فاللوطية ميـراثٌ عن قوم لوط، وأخذُ الحقِّ بالزائد ودفعه بالناقص ميراثٌ عن قوم شـعيب، والعلوُّ في الأرض بالفساد ميراثٌ عن قوم فرعون، والتكبُّرُ والتجبُّرُ ميراثٌ عن قوم هود، فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله.

ومن آثار المعاصي

ومنها: أن المعصية سـبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هـان العبد على الله لم يكرمه أحـد، كما قال الله تعالـى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحـج: ١٨]، وإن عظَّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفاً من شـرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومن آثار المعاصي

ومنهـا: أن العبد لا يـزال يرتكب الذنب حتـى يهون عليه، ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسـعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار».



ومن آثار المعاصي

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم، قال أبو هريرة: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم»، وقال مجاهد: «إن البهائم تلعن عصاة بني آدم، إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم»، وقال عكرمة: «دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم».

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنها تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهمَّ أعزَّني بطاعتك، ولا تذلَّني بمعصيتك»، وقال الحسن البصري: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إنَّ ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذلَّ من عصاه».

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنها تفسد العقل؛ فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص، وقال بعض



السلف: «ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله»، وهذا ظاهر، فإنه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى وتحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!

ومن آثار المعاصي

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قال: «هو الذنب بعد الذنب»، وقال الحسن: «هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب»، وقال غيره: «لمَّا كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم»، وأصل هذا: أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذٍ يتولاه عدوه، ويسوقه حيث أراد.



ومن آثار المعاصي

ومنها: أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ؛ فإنه لعن على معاصٍ وغيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة، فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده، ولعن المحلِّل والمحلَّل له، ولعن السارق، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من غيَّر منار الأرض، وهي أعلامها وحدودها، ولعن على أشياء أخر غير هذا، فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاه بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

ومن آثار المعاصي

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيَّه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].



ومن آثار المعاصي

ومنها: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: كان النبي ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: «**إنَّه أتاني الليلةَ آتيانِ، وإنَّهما ابتعَثَاني، وإنهما قَالَا لِي: انطلق، وإنِّي انطلقتُ معهما، وإنَّا أَتَينا على رجلٍ مضطجعٍ، وإذا آخر قائمٌ عليه بصخرةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرةِ لرأسِهِ، فيَثْلَغُ رأسَهُ، فيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هاهنا، فيتبعُ الحجرَ فيأخذه فلا يرجعُ إليه حتَّى يصحَّ رأسُهُ كما كانَ، ثم يعودُ عليهِ فيفعلُ بِهِ مِثْلَ ما فعلَ المرةَ الأُوْلَى، قالَ قلتُ لهما: سبحانَ الله مَا هذانِ؟ قَالَا لِي: انطلِق انطلِقْ، فانطلَقْنَا فأَتَينا على رجلٍ مستلقٍ لقفاهُ، وإِذَا آخرُ قائمٌ عليه بكلُّوبٍ مِن حديدٍ، وإِذَا هو يَأْتِي أحدَ شِقَّيْ وجهِهِ فيُشَرْشِرُ شِدْقَه إلى قَفَاهُ ومِنخَرَه إلى قفاه وعينَه إلى قفاه، ثم يتحوَّلُ إلى الجانبِ الآخرِ فيفعلُ بِهِ مِثْلَ مَا فعلَ بالجانبِ الأوَّلِ، فما يفرغُ مِنْ ذلكَ حتَّى يصحَّ ذلكَ الجانبُ كَمَا كانَ، ثمَّ يعودُ عليهِ فيَفعَلُ مثلَ مَا فعلَ المرةَ الأُولى، قَالَ قلتُ: سبحانَ الله مَا هَذَانِ؟ فقَالَا لِي: انطلِق انطلِقْ، فانطلقْتُ معهما فأتينا على مثلِ بناءِ التَّنورِ - قال عوفٌ: أحسبُ أنَّهُ قال: - فإذا فيهِ لغَطٌ وأصواتٌ فاطَّلعنا فإذا فيهِ رجالٌ ونساءٌ عراةٌ وإذا بنهرٍ لهيبٍ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلكَ اللَّهبُ تضَوضَوا، قال: فقلتُ: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلقْ، قالَ فانطلقْنا على نهرٍ - أحسبُ أنه قالَ: أحمر مثل الدَّم - وإذا في النَّهرِ رجلٌ يسبحُ وإذا عند شطِّ النَّهر رجلٌ قد جمعَ عندهُ حجارةً كثيرةً،**



وإذا ذلكَ السَّابحُ يسبحُ ما يسبح ثمَّ يأتي ذلكَ الرَّجل الَّذي جمعَ الحجارةَ فيفغرُ لهُ فاهُ، فليقمه حجراً، قال: قلتُ: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلقْ، قال: فانطلقْنا فأتينا على رجلٍ كريهِ المرآةِ كأكرهِ ما أنتَ راءٍ رجلاً مرآهُ، فإذا هو عندَ نارٍ يحشُّها ويسعى حولها، قالَ: قلتُ لهما: ما هذا؟ قالا لـي: انطلق انطلقْ، فانطلقْنـا فأتينا على روضةٍ فيها منْ كلِّ نورِ الرَّبيع، وإذا بينَ ظهري الرَّوضة رجلٌ قائمٌ طويلٌ لا أكادُ أرى رأسَهُ طولاً في السَّماءِ، وأرى حولَ الرَّجلِ من أكثر ولدانٍ رأيتُهم قطُّ وأحســنه، قالَ: قلتُ لهما: ما هؤلاء؟ قال لـي: انطلق انطلقْ، فانطَلَقْنَا فانتهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عظيمةٍ لَمْ أَرَ روضةً قطُّ أعظمَ منها ولا أحسَنَ، قَالَ قَالَا لِي: ارقَ فيها، فارتَقَيْنَا فِيها إِلَى مدينةٍ مبنيَّـةٍ بلبنِ ذهبٍ ولبـنِ فضَّةٍ، قـال: فأتيْنَا بـابَ المدينةِ فاسـتَفْتَحْنَا ففُتِحَ لنا فدَخلنَاهَـا، فتلقَّانَا رجالٌ شـطرٌ مِنْ خلقِهِمْ كأحسَنِ مَا أنتَ راءٍ وشطرٌ مِنْهُم كأقبحِ مَا أنتَ راءٍ، قَالَ قَالَا لَهُم: اذهَبُوا فقَعُوا في ذلكَ النَّهرِ، قَالَ: وإذا نهرٌ معترضٌ يجري كأنَّ ماءَهُ المحضُ في البياضِ، فذهَبُوا فوَقَعُوا فيهِ ثُـمَّ رَجَعُوا إلينَا قَدْ ذهبَ ذلكَ السُّوءُ عنهم، قالَ قَالَا لِي: هذِهِ جنةُ عدنٍ وهَذَاكَ منزِلُكَ، قالَ: فسَـمَا بَصَري صُعُداً فإذَا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضَاءِ، قَالَا لِي: هَذَاكَ منزِلُكَ، قلتُ لهما: بَارِكَ اللهُ فيكُمَـا فذَرَاني فأدخُلَهُ، قَالَا: أمَّا الآنَ فَلَا، وأنتَ داخلهُ، قلتُ لهما: فإنِّي قَدْ رأيـتُ منذُ الليلةِ عَجَباً فَمَا هَذَا الذي رأيتُ؟ قَالَ: قَالَا لِي: أَمَا إنَّا سـنخبرُكَ، أمَّا الرَّجلُ الأوَّلُ الذي أتيتَ عليهِ يُثْلَغُ رأسُـهُ بالحجرِ، فإنَّه الرَّجـلُ يأخُذُ بالقرآنِ فيرفُضُهُ ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المكتوبَـةِ، وأمَّا الرَّجلُ الذي أتيت عليهِ



يُشَرْشَرُ شِـدْقُهُ ـ أي قفاه ـ ومنخرُهُ إلى قفاه، وعينُهُ إلى قَفَاهُ، فإنَّه الرَّجلُ يغدُو من بيتِـهِ فيكذِبُ الكذبَةَ تبلُغُ الآفـاقَ، وأمَّا الرِّجالُ والنِّســاءُ العراةُ الذينَ في مثلِ بناءِ التنُّورِ، فإنَّهم الزُّناةُ والزَّواني، وأمَّا الرَّجلُ الذي أتيتَ عليه يســبَحُ في النَّهرِ ويلقَمُ الحجَرَ، فإنَّه آكلُ الرِّبَا، وأمَّا الرَّجلُ الكريهُ المرآةِ الذي عندَ النَّارِ يحشُّها ويسعَى حولَهَا، فإنَّـه مالكٌ خازنُ جهنَّـمَ، وأمَّا الرَّجـلُ الطَّويلُ الذي في الرَّوْضَةِ، فإنَّـه إبراهيمُ ﷺ، وأمَّا الوِلدَانُ الذيـنَ حولَهُ فكلُّ مولودٍ ماتَ على الفطرَةِ»، فقال بعض المسـلمين: يا رســول الله وأولاد المشركين؟ فقال رســول الله ﷺ **«وأولادُ المشــركينَ، وأمَّا القومُ الذينَ كانوا شطرٌ منهم حَسَناً وشطرٌ قَبيحاً فإنَّهم قومٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيئاً، تَجَاوَزَ اللهُ عنهم»**[1].

ومن آثار المعاصي

ومنها: أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمســاكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، قال مجاهــد: إذا ولي الظالم ســعى بالظلم والفســاد فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفســاد، ومن ذلك ما يحل بها من الخســف والزلازل ويمحق بركتها، وقد مرَّ رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخــول ديارهــم إلا وهم باكــون، ومِنْ شُــرْبِ مياههــم، ومن

(١) صحيح البخاري (٧٠٤٧).



الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات، وكثير من هذه الآفات أحدثها الله ﷻ بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء: أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيّه ﷺ فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة، ويستظلُّون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وِقْرَ بعير، وإن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله التي محقتها الذنوب والكفر.

ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم.



ومن آثار المعاصي

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرةً على نفسه وخاصته وعموم الناس.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ أغيرَ الخلق على الأمة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»[1].

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ**»[2].

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**»[3]، وقال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُوْلَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٣) أخرجه مسلم (٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤).



والمقصـــود أن الذنوب تضعف الحياء مــن العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله، ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذا الحال لم يبقَ في صلاحه مطمع.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعزير الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجـرَّأ على معاصيه، وربمـا اغتر المغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حســن الرجـاء وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبـي، وهذا من مغالطة النفـس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضــي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟! هذا من أمحل المحال وأبين الباطل.

وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه، ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويسـتخفون به كما هــان عليه أمره واستخف به، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمــه الناس، وكيف ينتهك عبــدٌ حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهوِّنه الله على الناس؟! أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟!



وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيَّعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه، أهانهم الله فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله، أو يهن من أكرمه الله؟!

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده، وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]، وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعة حظها ونصيبها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيَّعَ مَنْ لا غنى له عنه، ولا عوضَ له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى، أو منه كل العوض.

ومن آثار المعاصي

أنها تفوّت على صاحبها ثواب المؤمنين، ومن فاته رفقة المؤمنين، وحسن دفاع الله عنهم فاته كلُّ خيرٍ رتَّبه الله تعالى في كتابه على الإيمان، وهو نحو مئة خصلة، كل خصلة منها خير



من الدنيا وما فيها، منها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، ومنها: دفع شرور الدنيا والآخرة عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، ومنها: موالاة الله لهم ولا يُذَلُّ من والاه الله، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]، ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم، ومنها العزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نوراً يمشون به، ومغفرة ذنوبهم، ومنها: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبُّهم ويحبِّبهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين، ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه المعاصي، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من



دائرة الإيمان ويحـول بينه وبينه؟! ولكن لا يخـرج من دائرة عموم المسلمين، فإن استمر على الذنوب وأصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هاهنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: «أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر».

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تضعف سيرَ القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه، وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيِّره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يصعب تداركه، والله المستعان!

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته ولا بد، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي: الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال.

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحوُّل عافيته، وفجأة نقمته، وجميع سخطه.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأخبر الله تعالى أنه لا يغيِّر نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيِّر ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّر غُيِّر عليه جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غيَّر المعصية بالطاعة غيَّر الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن طاعة الله حصنه الأعظم الذي مَنْ دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه منه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريحُ



الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه وكل مكروه قاصد إليه، فمن خاف الله أمَّنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأَمَرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنسين، فلو فكر العاقل ووازن لذة المعصية، وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية، وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له.

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة، ولهذا يجد العبد وحشةً بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه، والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش ويستوحش منه.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل، أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟! وهل العذاب إلا عذاب القلب؟! وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة؟!



وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئاً غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يُعَذَّب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار، وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذٍ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينةً بذكره؟!

حتى يقول بعضهم في حال نزعه: «وا طرباه»، ويقول الآخر: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب»، ويقول الآخر: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها»، ويقول الآخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، ويقول الآخر: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين، فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة



المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد بعتها بغاية الهوان، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تُعمي بصيرةَ القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب موارد الهداية، وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: «إنِّي أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية».

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب! فيا عزة السلامة ويا سرعة العطب! ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجوه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللهَ مُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(١).

فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحُمَمَة، فيا لها من عقوبة لا توازن لذَّات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها! فكيف بقسط العبد المُنغَّص المُنكَّد المُتعَب في زمن إنما هو ساعة من حُلْم؟! فالله المستعان.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٥٦).



ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تُصغِّر النفس وتقمعها وتدسِّيها وتحرقها حتى تصير أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنمِّيها وتزكِّيها وتكبِّرها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، والمعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله، فالعاصي يدسُّ نفسه في المعصية ويخفي مكانه، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تُكبِّر النفس وتعزُّها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما صَغَّر النفوس مثل معصية الله وما كَبَّرها وشرَّفها ورفعها مثل طاعة الله.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟! وكيف يخطو خطوة واحدة؟! وإذا قُيِّد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بَعُدَ عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات.

وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقايةٌ وجُنَّةٌ حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي، وأصل هذا كله أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبقَ له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش، خامل الذكر، ساقط القدر، زريَّ الحال، لا حرمة له ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟!



ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]، أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل ﷺ حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع والمنيب والولي والورع والصالح والعابد والخائف والأواب والطيب والمرضي ونحوها، وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي وقاطع الرحم والغادر وأمثالها، فهذه أسماء الفسوق ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، الذي يوجب غضب الدَّيَّان، ودخول النيران،



وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضى الرحمن ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمرٌ بها، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تؤثِّر بالخاصية في نقصان العقل، فلا تجد عقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاصٍ إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ورأيه أسدُّ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب كقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي مَنْ هو في قبضته وفي داره؟! وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه، وهو بعينه غير متوارٍ عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه وطرده عن بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز



بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟! بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد يكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة.

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرح والسرور وطيب العيش إنما هو في رضى مَن النعيمُ كلُّه في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يفِ به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرضَ بالدنيا وما فيها عوضاً منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعُّم المترفين فيها، ولا يشوب تنعُّمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعُّم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فلا إلـه إلا الله ما أنقص عقل من باع الدرَّ بالبعر! والمسك بالرجيع! ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم، ولعنهم، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً!

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأي فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفة عين، ولا بد له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدوه فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه؟! فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممَّن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ



﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

وفي الحديث: «**إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوْعِي أنَّه لنْ تموتَ نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقَهَا، فاتقوا الله وأَجْمِلوا فِي الطَّلبِ**»، و«**إنَّ الله جعلَ الرَّوحَ والفرحَ فِي الرِّضَى واليقينِ، وجعلَ الهمَّ والحزنَ فِي الشَّكِّ والسَّخَطِ**».

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقاربه فبركته ممحوقة.

وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه هي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، وكل وقت عصي الله فيه، أو مال عصي الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل، فهو على صاحبه



ليس لـــه، فليس له مـــن عمره ومالـــه وقوته وجاهـــه وعلمه إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مئة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطيـــر المقنطرة من الذهب والفضة، ويكـــون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئاً لأن يكـــون من العِلْية، فـــإن الله خلق خلقه قســـمين: علية وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلَين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزَّة لهـــؤلاء، والذلَّة والصغار لهؤلاء، فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكـــون من الأعلَين، وقد يجتمـــع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مئة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم: وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشـــرق والمغرب، ومما بين الســـماء



والأرض، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ لَا يُلْقِي لَهَا بَـالاً يَهْوِي بِهَـا فِي النَّارِ أَبْعَـدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْـرِقِ وَالمَغْرِبِ**»(١)، فأي صعود يوازي هذه النزلة؟!

والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا إذا استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته، ومنهم من يكون نزوله إلى مباح، لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة، فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنهـا، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت، ومنهم من يكون نزوله إلى معصية؛ إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عوده إلى توبة نصوح وإنابة صادقة.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الطائفتين حكماً مقبولاً فقال: «التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته».

قلت: وهذا بحسـب قوة التوبة وكمالها وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضـوع، والإنابة والحـذر، والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأمور حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيراً منـه قبل الخطيئة، فهذا

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).



تكون في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العجب وخلَّصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خدَّ ضراعته وذِلِّه وانكساره على عتبة باب سيِّده ومولاه، وعرَّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحيِياً منه، خائفاً، وجلاً، محتقراً لطاعته، مستعظماً لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرِّد بالكمال والحمد والوفاء.

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرها أهلاً لها، وأي نعمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها، ورأى مولاه قد أحسن إليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز.

فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم ـ دقيقها وجليلها ـ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة مَنْ قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض وملك السماوات والأرض وإله السماوات والأرض؟!



ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض.

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السماوات والأرض بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره.

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى صحته الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلى مثل عمله فيعود إلى درجته، هذا إذا كان نزوله إلى معصية، فإذا كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من رأسه.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تُجرِّئ على العبد من لم يكن يتجرأ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى



والإغواء والوسوسة والتخوين والتخويف والتحزين، وإنسائه ما مصلحته في ذكره، ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزاً.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم، قال بعض السلف: «إنِّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي»، وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه، فتتأسَّد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

وذلك لأن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قُطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإنَّ ذكرَ الله وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك.

فلا بد للعبد من شيء يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوي ـ كما تقدم ـ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع، والله المستعان.



ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تخون العبدَ أحوجَ ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم مَنْ قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه، وكفَّها عما يضره، وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم مَنْ كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاء، وأرشدهم مَنْ آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم مَنْ عكس الأمر.

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع في الدارين.

فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلُّص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قِرابَه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه، واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به، وكذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها، فما الظن بها؟!



والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالـى، والإنابة إليـه، والجمعية عليـه، والتضـرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه.

وهذا كله أثـر الذنوب والمعاصي، كمن لـه جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيَّعهم، وأضعفهم وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يسـتفرغوا وسـعهم في الدفع عنه بغير قوة.

وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى منه وأمرُّ، وهو أن يخونه قلبه ولسـانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: لا إلٰه إلا الله فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل للآخر قل: لا إلٰه إلا الله، فقال: شاه رخ غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: لا إلٰه إلا الله، فقال:

يَا رُبَّ قَائلةٍ يَومـاً وقَدْ تَعِبَتْ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مَنجابِ

ثم قضى.



وقيل لآخر: قل: لا إلٰه إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاننا تننتنا، حتى قضى!

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول ولم أَدَعْ معصية إلا ركبتها؟! ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة؟! ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، ولم يقلها حتى قضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها لساني يمسك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول: لله فلس، لله فلس، حتى قضى.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه: لا إلٰه إلا الله وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيد، هذا كذا، حتى قضى.

سبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبراً، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجَمْعِ الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته؟! فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت،

وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟!

فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفَّق لحسن الخاتمة مَنْ أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً؟! فبعيدٌ من قلبٍ بعيدٍ من الله تعالى، غافلٍ عنه، متعبدٍ لهواه، أسيرٍ لشهواته، ولسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته مشتغلة بمعصيته، بعيدٌ عن هذا أن يوفَّق للخاتمة بالحسنى، ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ [القلم: ٣٩، ٤٠].

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها مددٌ من الإنسان يمدُّ به عدوه عليه، وجيشٌ يقويه به على حربه، وذلك أن الله ﷻ ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، وصاحب لا ينام عنه ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس، فقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل، ومدَّ حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم



النار، نصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أنَّ ما جرى عليَّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله فبسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية إذ قد فاتنا شَرِكَةُ صالحيهم في الجنة.

وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذَ له أهبته ونعدَّ له عدته.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسَه، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها، فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه، وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكرها؟ وما معنى نسيانه نفسه؟ قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال الله العظيم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فعاقب سبحانه من نسيَه عقوبتين، إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد: إهمالُه وتركُه وتخلِّيه عنه وإضاعته؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو: إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به نفسه، ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمرُّ بباله حتى



يقصده ويؤثره، وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها، وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترامٍ به إلى التلف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة، وضيَّعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل وتقطع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا يُنال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً يجلبه وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدةً في نفسه وغيره، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار مَنْ أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيهم، وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة، أو مخصوص



من هذا العموم، وكأن هذا أمر جارٍ على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟! وأي ظلم للنفس فوق هذا؟! فالحكم لله العلي الكبير.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليَّه، وأنفعَ الخلق له، وأنصحَهم له، ومَنْ سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه ليتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة، وفي بعض الآثار: إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

وإذا تولَّاه الملك تولَّاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبَّتَه وعلَّمه وقوَّى جنانه وأيَّده، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، فيقول له الملك عند الموت: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالذي يسرُّك، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي



القبر عند المسـألة، فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشـته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، يحارب عنه عدوه ويدافع عنـه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشـره به ويحثه على التصديق بالحق، وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلَّم على لسـانه، وألقى على لسـانه القول السـديد، وإذا بعد منه وقرب الشيطان تكلَّم على لسانه وألقى عليه الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسـانه الملـك، والرجل يتكلم على لسـانه الشيطان، وفي الحديث: «**إِنَّ السَّكينةَ تنطقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ**».

وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح، فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك ويسمع ضدَّها فيقول: ما ألقاها على لسـانك إلا الشـيطان، فالملك يلقي في القلب حقـاً ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شـقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبَّه، وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك على دعائه وقال: لـك بمثله، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسـنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حولـه، وإذا نام على وضوء بات في شـعاره ملك، فملك المؤمن يـرد عنه ويحـارب ويدافع عنه، ويعلمـه ويثبته ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه



وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم؟!

وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال: لا جزاك الله خيراً، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان، قال بعض الصحابة ﵃: «إن معكم من لا يفارقكم فاستجيبوا وأكرموهم».

وقد نبّه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوا أن تروهم منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه ـ وإن كان قد يعمل مثل عمله ـ فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟! والله المستعان.

ومن آثار المعاصي

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته؛ فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب

لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان، والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستخرج بها المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى استعمال لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

الأبواب الأربعة التي تدخل منها المعاصي

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة: (العين، واللسان، والأذن، والخطوات)؛ فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلاك، قال النبي ﷺ: «**لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الأُخْرَى**»[1].

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولِّد خطرةً، ثـم تولِّد الخطرة فكرةً، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غضِّ البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه، ولا قدرة لك عليه ولا على بعضه.

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).



شأن الخطرات

وأما الخطرات فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردَّد على القلب حتى تصير منًى باطلة: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وأخسُّ الناس همَّةً وأوضعهم نفساً مَنْ رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتحلّى بها.

ورود الخاطر لا يضر في أصله

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مرَّ وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخَدْعه وغروره، وهو أخفُّ شيء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة، وهيهات هيهات، إنما الكمال في امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالى من العبد ومن الناس، والفكر في طرق ذلك والتوصُّل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان!



وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالى، فربما استعملها في صلاته، وكان يجهِّز جيشه وهو في الصلاة، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة، وهذا باب من تداخل العبادات في العبادة الواحدة، وهو باب عزيز شريف لا يدخله إلا صادق حاذق القلب متضلِّع من العلم عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

حفظ اللفظات

وأما اللفظات فحفظها بأن لا يُخرج لفظةً ضائعة، ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة هي أربح منها فلا يضيّعها بهذا؟

وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى، قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها وألسنتها مغارفها». فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبه: حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك، ويبيِّن لك طعم قلبه اغتراف لسانه، أي: كما تطعم بلسانك ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من



لســانه، فتذوق ما في قلبــه من لســانه، كما تذوق ما فــي القدر بلسانك، وفي حديث أنس المرفوع: «**لَا يَسْــتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْــتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْــتَقِيمُ قَلْبُهُ حتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَــانُهُ**»[1]، وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «**الفَمُ وَالفَرْجُ**»[2].

التحفظ من حركة اللسان

ومن العجب أن الإنســان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشــار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقــي لها بالاً، ينـزل بالكلمــة الواحدة منها أبعــد ممَّا بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

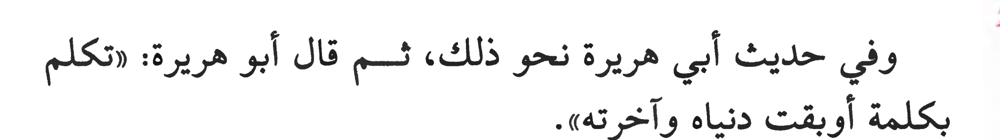
وإذا أردت أن تعــرف ذلك، فانظــر إلى ما رواه مســلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رســول الله ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[3]، فهذا العابد الــذي قد عبد الله ما شــاء أن يعبده أحبطــت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٦٢١).



وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثـم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته».

وفـي الصحيحين مـن حديث أبـي هريرة عـن النبي ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»(١).

وعند مسلم: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيْهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**»(٢).

وعنـد الترمذي من حديـث بلال بن الحـارث المزني عن النبي ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رَضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُـغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَـا رِضْوَانَهُ إِلَى يَـوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخطِ اللهِ وَمَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(٣).

وكان علقمة يقول: «كم مـن كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث».

وأيسـر حركات الجوارح حركة اللسـان، وهي أضرُّها على العبد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨/٤٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٨)، وهو عند البخاري أيضاً (٦٤٧٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٣١٩).



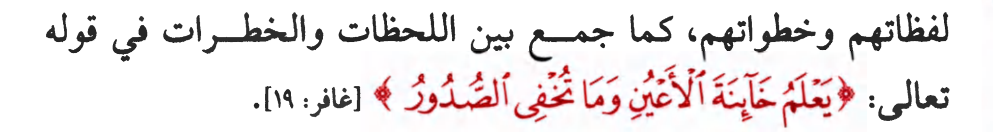
في اللسان آفتان عظيمتان

وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراءٍ مداهنٌ إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً عن أن تضرَّه في آخرته.

وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

حفظ الخطوات

وأما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب، فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله فتقع خطاه قربة، ولمَّا كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في



لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

أسباب سوء الخاتمة

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسباباً، ولها طرقاً وأبواباً: أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والإقدام والجرأة على معاصي الله عَزَّ وَجَلَّ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد».

قال: «ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية فلما أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات».

قال عبد الحق: «وقيل لآخر ممَّن أعرفه: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا».



قال: «وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أُحدِّث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده، ده وازده (تفسيره: عشرة بأحد عشر).

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول:

أين الطريق إلى حمام منجاب؟

قال: «وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب الحمام، فمرَّت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمَّام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب، وأشار إلى داره، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقرُّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْماً وَقَدْ تَعِبَتْ ... كَيفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ؟

فبينما هو يوماً يقول ذلك وإذا بجارية أجابته من طاقٍ:

هَلَّا جَعَلْتَ سَرِيْعاً إِذْ ظَفَرْتَ بِهَا ... حِرْزاً عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلاً عَلَى البَابِ

فازداد هيمانه، واشتد هيجانه، ولم يزل على ذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا».

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له:



كل هذا خـوف من الذنـوب؟ فأخـذ تبنة مـن الأرض، وقال: «الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجـل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحـول بينه وبين الخاتمة الحسـنى، فمـن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: «واعلم أن سـوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن اسـتقام ظاهره وصلح باطنه، ما سـمع بهـذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، فيصطلمه الشـيطان قبل الإنابة، فيظفر به عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله».

قال: «ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسـجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونـزل إليها، ودخل الـدار عليها فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لُبِّي وأخذتِ بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسـلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوِّجني منك، قال: أتنصَّر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وفاته دينه».





كتاب

طريق الهجرتين وباب السعادتين





الفقر نوعان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، والمقصود هنا أن الله تعالى أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه ﷻ، كما أخبر عن ذاته المقدَّسة وحقيقة أنه غني حميد؛ فالفقر المطلق من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابتٌ لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً.

إذا عُرف هذا فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحاً ولا ذماً، ولا ثواباً ولا عقاباً، والفقر الثاني: فقر اختياري، وهو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه.

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعزِّ التامِّ عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.



إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين

اعلم أنه يحسن إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين: أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغــب، والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابة الداعي فيستحضر في نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسَّة شركائها، فإنه إن تمَّ عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد.

هموم القلب وإراداته

والله ســبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من همٍّ وإرادةٍ وحبٍّ يخرج منه همٌّ وإرادةٌ وحبٌّ يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبقَ فيه موضع لغيــره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشــربة إذا صادفه خاليــاً، فأما إذا صادفه ممتلئــاً من غيره لم يســاكنه حتى يخرج ما فيه، ثم يسكن موضعه.

أصلان عظيمان

في بيان أصلين عظيمين:

أحدهما: أن نفــس الإيمان بالله وعبادتــه ومحبته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكل عليه، هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دلَّ عليه القرآن، لا كما يقول



مَنْ يقول: إن عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذَّته، بل لمجرد الامتحان والابتلاء.

الأصل الثاني: كمال النعيم في الدار الآخرة أيضاً به سبحانه وتعالى برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه، لا كما يزعم مَنْ يزعم أَنْ لا لذَّةَ في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التامُّ في حظِّهم من الخالق تعالى أعظم وأعظم ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»[1]، ولهذا قال في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]، فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذِّب به أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعِّم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظِّهم من رؤيته وسماع كلامه والدنوِّ منه وقربه.

تعليق القلب بغير الله تعالى

في تعلُّق القلب بما سوى الله مضرَّةٌ عليه، إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته المعينة له على عبودية الله ومحبته وتفريغ قلبه له، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضرَّه أو أهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإن أحبَّ شيئاً بحيث

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٩).



يخالِـله فلا بد أن يسـأمه أو يفارقه، فالضر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد تعذَّب بالفراق وتألَّم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة.

وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء أن كل من أحب شيئاً دون الله لغير الله، فإن مضرَّته أكثر من منفعته، وعذابه أعظم من نعيمه.

السعيد الرابح

السعيد الرابح مَنْ عامل الله تعالى في الخلق، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يُرضِهم بسخط الله، وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم، ولم يُؤثِرهم في الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحيا حب الله وخوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحاً، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذه مغنماً لا مغرماً، وربحاً لا خسراناً.

ومما يوضّح ذلك أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].



وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**واعلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجتمعتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ**»[1]، وإذا كانت هذه حال الخليقة، فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. والله أعلم.

أمران مهمان

اعلم أن هناك أمرين: أحدهمـــا أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوّق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك، وهذا هو الأغلب على الخليقة، فإن الله سبحانه قضى فيمـــا قضى بـــه أن ما عنـــده لا يُنـــال إلا بطاعتـــه، وأنه ما اســـتُجلبت نِعم الله بغير طاعته، ولا اســـتُديمت بغير شـــكره، ولا عُوِّقت وامتُنعت بغير معصيته، وكذلك إذا أنعم الله عليك ثم سلبك النعمة، فإنه لم يســـلبها لبخل منه، ولا استئثار بها عليك، وإنما أنت المتسبِّب في سلبها عنك، فإن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفســـهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفـال: ٥٣]، فما أزيلت نعم الله بغير معصيته:

إِذَا كُنْـــتَ فِـــي نِعْمَـــةٍ فَارْعَهَا ... فَـــإِنَّ الذُّنُـــوبَ تُزِيْـــلُ النِّعَم

فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت في الحقيقة الذي

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).



بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفســك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

مَا يبلــغُ الأعداءُ مِــنْ جَاهلٍ   مَا يبلــغُ الجاهلُ مِنْ نَفْســهِ

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك، وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتَّهم أقداره وتعانيها وتلومها، فقد ضيَّعت فرصتك، وفرَّطت في حظــك، وعجز رأيك عن معرفة أســباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والمقال، فأنت المعني بقول القائل:

وعاجزُ الرَّأْيِ مِضياعٌ لِفرصَتِهِ   حتَّى إِذَا فَاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

شكر النعم

فإن أصل الشــكر هو الاعتراف بإنعــام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشــكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشــكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع لــه ويحبه ويرضَ به وعنه لم يشــكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بهــا وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واســتعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم ـ وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له ـ.



وكان في زمن الحسن البصري شابٌّ لا يُرى إلا وحده، فسأله الحسن عن ذلك فقال: «إني أجدني بين نعمة من الله وذنب مني، فأريد أن أُحدِث للنعمة شكراً، وللذنب استغفاراً، فذلك الذي شغلني عن الناس»، أو كما قال، فقال له: «أنت أفقه عندي من الحسن»، فالخير كله من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وضع النعم في موضعها

النعم كلها من نعم الدين والدنيا من منَّة الله تعالى وفضله على عباده، وهو تعالى ـ وإن كان أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ـ فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، لا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها... ولو رأى العقلاء واحداً منهم قد وضع المسك في الحشوش والأخلية، ووضع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة لاشتدَّ نكيرهم عليه، والقدح في عقله، ونسبوه إلى السفه وخلاف الحكمة، وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان، والإحسان موضع العقوبة، لسفَّهوه وقدحوا في عقله.

ومن المعلوم أن أجلَّ نعمةٍ على عبده نعمة الإيمان به ومعرفته



ومحبته وطاعته والرضا به والإنابة إليه والتوكل عليه والتزام عبوديته...
والله تعالى أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذورها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر، فليس من الحكمة أن يبذر البرَّ في الصخور والرمال والسباخ، وفاعل ذلك غير حكيم، فما الظن ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المَحَالِّ التي هي أخبث المحال؟!

والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً، فهو أعلم بمن يصلح لتحمُّل رسالته، فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة، وتعظيم المرسل، والقيام بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرُّب إليه، ومَنْ لا يصلح لذلك، وكذلك يعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم.

فالرب سبحانه وتعالى إذا علم من المحل أهليةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب إليه ذلك، ووضعه فيه، وكتبه في قلبه، ووفقه له، وأعانه عليه، ويسّر له طرقه، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك، ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظم من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شيء إليه، فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمدُّه بمعونته، ويؤيِّده بتوفيقه، ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به، فيزداد العبد به معرفةً وله محبةً وإليه إنابةً وعليه توكلاً، ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد معه سواه.



وهذا هو الذي عرف قدر النعمة، وعرف المنعم، وأقرَّ بنعمته، وصرفها في مرضاته، واقتضت حكمة الرب تعالى وجوده وكرمه وإحسانه أن بذر في هذا القلب بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة، فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم.

والمقصود أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلح لها ومن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن يمنعه من يصلح له، وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحاً، وجعله أهلاً وقابلاً، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبب، ومن اعترض بقوله: فَهَلَّا جعل المحالَّ كلها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد! فهو من أجهل الناس وأضلِّهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد؟ وهلَّا جعلها كلها شيئاً واحداً! فلم خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والداء والدواء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمر، والحسن والقبيح؟! وهل يسمح خاطر مَنْ له أدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدالِّ على حمق سائله وفساد عقله؟! وهل ذلك إلا بموجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته؟! ويستحيل أن يتخلَّف موجب صفات كماله عنها. اهـ.



عدم العلم والعزم

وتأمل أول نقص دخل على أبي البَشَرِ، وسرى إلى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر كما فُسِّر بهما هاهنا فهو أمر عدمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فإنه اعترف بنقص حظ نفسه ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها، ويَقِي العبد من ذلك، وإلا ضرته آثارها ولا بد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه، وإلا ضره ولا بد.

المعصية إذا اقترنت بواجبها

وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتَّب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضاً، وإن كان سببها مسخوطاً مبغوضاً للرب تعالى، ولكنه يحب ما يترتَّب عليها من التوبة والاستغفار، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضل راحلته بأرض دوية مهلكة، عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن



الحياة فنام، ثم استيقظ فإذا بها قد تعلَّق خطامها في أصل شجرة، فجاء حتى أخذها، فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته، فهـذا الفرح العظيم الذي لا يشـبهه شـيء أحب إليه سـبحانه من عدمه، وله أسـباب ولوازم لا بد منها، وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات، وإن كان محبوباً له، فهذا الفرح أحب إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع.

إذا لم يباشر القرآن قلبك

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها أن يعالـج قلبه بالتقوى، وأن يسـتفرغ منه المواد الفاسـدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرَّض إلى الأسباب التي يناله بها، ومن صدق الرغبة واللجـأ إلى الله أن يحيـي قلبه ويزكيه، ويجعل فيـه الإيمان والحكمـة، فالقلب الميـت لا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

متى يتخلف كمال العبد وصلاحه؟

كمال العبد وصلاحه يتخلَّف عنه من إحدى جهتين: إما أن تكون طبيعته يابسة قاسـية غير لينة ولا منقادة، ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها، وإما أن تكون لينة منقادة سلسة القياد، لكنها غير



ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب، فمتى رزق العبد انقياداً للحق وثباتاً عليه فليبشر، فقد بُشِّر بكل خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

علامة البلاء الموصل إلى الله

إذا ابتلى الله تعالى عبده بشيءٍ من أنواع البلايا والمحن، فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عوِّض منها أجلَّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله تعالى بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه، وانطراحه على بابه وقد كان عنه معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وقد كانت البلية في حق هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وإن لم يردَّه ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه، ورده إلى الخلق، وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه، والتذلل بين يديه، والتوبة والرجوع إليه، فهو علامة شقاوته وإرادة الشَّرِّ به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن



شكر المنعم عليه بالسـراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبالٌ عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

إذا أراد الله تعالى بعبده خيراً

إذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه، وشَـغَلَهُ برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة، فإن ما تُقبّل من الأعمال رُفع من القلب رؤيته، ومن اللسـان ذكره، وقال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصـب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال، وتضرَّع إلى الله، وبادر إلى محوها، وانكسر وذلَّ لربه، وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسـنة فلا تـزال نصب عينيه، يراها ويمنُّ بها ويعتد بها، ويتكبَّر بها حتى يدخل النار».

الطريق الذي يوصل إلى الاستقامة

في ذكر طريق يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شـيئان: أحدهما: حراسـة الخواطـر وحفظها، والحـذر كل الحذر من إهمالها والاسترسـال معهـا، فإن أصل الفسـاد كله من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكَّن بذرها تعاهدها الشـيطان بسقيه مرة بعد

أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذ لم يدفعها وهي خاطر ضعيف؛ كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكَّنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة: أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك. الثاني: حياؤك منه. الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته. الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر. الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته. السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر. السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر. الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدُّها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه، وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمحبة والمعرفة، فأخرجتها واستوطنت



مكانها؟! ولكــن لو كان للقلب حياة لشـعر بألــم ذلك وأحسَّ بمصابه. التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ســاحل له، فإذا دخل القلب فــي غمراته غرق فيــه وتَاهَ في ظلماته، فيطلب الخلاص منه، فلا يجد إليه سبيلاً، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد.. العاشر: أن تلك الخواطر هــي وادي الحمقى وأمانــي الجاهلين، فلا تثمر لصاحبهــا إلا الندامة والخــزي، وإذا غلبت علــى القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها، وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل.

الخواطر الإيمانية

وكذلك الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب متى بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واســتعملت جوارحه في الطاعــات. الثاني: صدق التأهب للقــاء الله ﷻ من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن مَنْ استعد للقاء الله تعالى انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها، وخمدت من نفسه نيران الشهوة، وأخبت قلبه إلى ربه تعالى، وعكفــت همته على الله، وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى وعلوماً أخر.



النـاس قسمان

الناس قسمان: علية، وسفلة، **فالعلية**: مَنْ عرف الطريق إلى ربه، وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه، **والسفلة**: مَنْ لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم، قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

سيد العمل

فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم قد وفَّر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه، فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حكي عن جماعة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن أنه رؤي بعد موته، وأخبر: أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، قد جعله زاده لمعاده، ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر.



ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها، أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها، أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي؛ كقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقاً إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن، وهو الغالب على أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغيَّر عليه قلبه، وساءت حاله.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه، ونفذ منه إلى ربه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامعٌ المنفذ السالك إلى الله في كل واد واصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه، يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب من كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته



في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو مراقبة ومحبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ماذا تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها، مراقباً له عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلَّمت له المبيع منتظراً منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة.. فإذا سلك العبد هذا الطريق عطف عليه ربه فقرَّبه واصطفاه، وأخذ بقلبه إليه، وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد المشفق ولده، فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه، وآثره على ما سواه، ورضي به من الناس حبيباً ورباً ووكيلاً وناصراً ومعيناً وهادياً؟!

فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره، وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه حباً له وشوقاً إليه ويقع شكراً له، ولكن حجب القلوبَ عن مشاهدة ذلك إخلادُها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصدَّت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم، وإلا فأي قلب يذوق حلاوة معرفة الله تعالى ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟!



من عرف طريقاً إلى الله تعالى ثم تركها

ومن ذاق من ذلك وعرف طريقـاً موصلة إلى الله، ثم تركها وأقبل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته، وقع في آثار المعاطب، وأودع قلبه سـجون المضايق، وعُـذب في حياته عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين، فحياته عجز وغم وحزن، وموته كمد وحسرة، ومعاده أسف وندامة، قد فرط عليه أمره، وشتت عليه شمله، وأحضرت نفسه الغموم والأحزان، فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين... ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله، ثم تركها ناكباً عنها مكباً على وجهه، فأبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، وأقبل ثـم أدبر، ودُعي فما أجـاب، وفتح له فولَّى ظهره الباب.

قوتان مهمتان في السير إلى الله

السـائر إلى الله تعالى والـدار الآخرة، بل كل سـائر إلى مقصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية؛ فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، فيقصدها سائراً فيها، ويتجنَّب أسـباب الهلاك ومواضع العطـب، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة.. وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السـير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.



لا تستوحش في بداية الطريق من كثافة الطبع

والسائر إلى الله تعالى لا يستوحش في بداية الطريق من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكلّما أدمن على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً وسحراً قرب من المنزل، وتلطّفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنساً، وكثافته لطافة، ودرنه طهارة.

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفاً في القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقّاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف، وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم مَنْ عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات، فداء هذا من جهله، وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله.

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله تعالى، ورجي له النفوذ، وقوي على ردِّ القواطع والموانع بحول الله تعالى وقوته.



الإنسان في سفر

العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار، فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدَّةُ سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جُعلت هذه الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر، فالكيِّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه.

والناس في قطع هذه المراحل قسمان:

قسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا مرحلة منها قربوا من تلك الدار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره، وإبطال دعوته دعوة الحق، فهم مصحوبون بالشياطين الموكلة بهم، تسوقهم إلى منازلهم سوقاً، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجاً وتسوقهم سوقاً.

والقسم الثاني: قطعوا تلك المراحل إلى ربهم سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله، وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.



فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد، غير آخذ منه ما يبلغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته، بل مفرِّط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غبَّ أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزوَّد من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة.

والسابق بالخيرات: همُّه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به.

فأما الظالم لنفسه: فإذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحرَّكت جوارحه طالبة لها ساعية فيها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة يأخذ بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة، فهذا حال الظالم مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة كان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم عباده من فضله وعدله.

وأما المقتصدون: فأدوا وظيفة تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجارة، ولا بخسوا الحق



الذي عليهم، فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها، مشتغلاً بها، قائماً بأعيانها، مؤدياً واجب الربِّ تعالى فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها، كذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات: فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين.

الأبرار المقتصدون

الأبرار المقتصدون: قطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدَّى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى



الصف الأول من المسجد، فأدَّى فريضته كما أمر مكملاً لها شرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة، والحضور بين يدي الرب، فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ويجد ثمرتها في قلبه.. فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه، فلا تطيب له الحياة إلا بالصلاة، هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يخلُّون منها بشيء ما أمكنهم، فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام، أو خلف ظهره، ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة.. فإذا كانوا قبل غروب الشمس توافروا على أذكار المساء لا يخلُّون بها أبداً، فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب تعالى التي قسمها بين عباده، فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة.

وبالجملة فلا يزال يذكر الله تعالى على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله تعالى، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله تعالى، فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم وتفقُّدهم، وقائم بحقوق أهله وعياله.. فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره، فهذه وظيفته دائماً.



السابقون المقربون

وأما السابقون المقرَّبون: فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا لهم رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرُّف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم.. وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله تعالى وغُمِرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته فَسَرَت المحبة في أجزائهم، قد أنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه، قد فنوا بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العلى وأسماءه الحسنى، مشاهداً له في أسمائه وصفاته قد تجلَّت على قلبه أنوارها، فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه، فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته، فيا لها من سجدة ما أشرفها من سجدة!

فإذا استيقظ أحدهم وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن فأول ما يجري على لسانه ذكر محبوبه والتوجه إليه، واستعطافه والتملق بين يديه، والاستعانة به ألَّا يخلي بينه وبين نفسه،

وأن لا يكلـه إليها، فأول ما يبـدأ به: «**الحَمْـدُ للهِ الَّـذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُـورُ**»[١]، متدبراً لمعناهـا من ذكر نعمة الله عليه، ثم يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مسـتصحب لما فيه، ثم يصلي ما كتب الله له صلاةَ محبٍّ ناصح لمحبوبه، متذلل منكسر بين يديه، لا صلاةَ مُدِلٍّ بها عليه، يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره، واستزاره وطرد غيره، وأهَّله وحرم غيره، فهو يزداد بذلك محبة إلى محبته، ويرى أن قـرة عينه وحياة قلبه في تلك الصلاة، فهو يتمنَّى طول ليله، ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك.

فهو يتملق فيها مولاه تملـق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطياً لكل آيـة حظَّها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليـه آيات المحبة والـوداد والآيات التي فيها الأسـماء والصفات.. وتطيب له السـير آيات الرجاء والرحمة وسـعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه.. فوا أسفاه، ووا حسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفذ العمر والقلب محجوب ما شـمَّ لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزاً، وموته كمداً، ومعاده حسرةً وأسفاً؟!

فإذا صلى ما كتب له جلس مطرقاً بين يدي ربه تعالى هيبةً له وإجلالاً، واسـتغفره اسـتغفار من تيقن أنه هالك إن لم يغفر له

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢).



ويرحمه، فإذا قضى من الاستغفار وطراً وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه الأيمن مجمّاً نفسه مريحاً لها مقوياً لها على أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطاً بجده وهمّته كأنه لم يزل نائماً طول ليلته لم يعمل شيئاً، فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر فيصلّي السنة، ويبتهل إلى الله بينها وبين الفريضة، فإن لذلك الوقت شأناً يعرفه من عرفه، ويكثر فيه من قول: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثير عجيب.

ثم ينهض إلى صلاة الصبح قاصداً الصف الأول عن يمين الإمام أو خلف قفاه، فإن فاته ذلك قصد القرب منه ما أمكن، فإن للقرب من الإمام تأثيراً في سرِّ الصلاة، ولهذا القرب تأثيراً في صلاة الفجر خاصة، يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكلِّيَّته على ذكر الله والتوجُّه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار، فيجعلها ورداً له لا يخل بها أبداً، ثم يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع، ثم يذهب متضرِّعاً إلى ربه سائلاً له أن يكون ضامناً عليه متصرفاً في مرضاته بقية يومه، فلا ينقلب إلا في شيء له فيه مرضاة ربه.

فإذا جاء فرض الظهر بادر إليه مكملاً له ناصحاً فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه.

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربه في جميع أعماله.

الابتلاء حسب الإيمان

وقد جرت سنة الله تعالى في المؤمنين من عباده أن يبتليهم على حسب إيمانهم، فمن ازداد إيمانه زيد في بلائه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبْتَلَى العَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِيْنِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِيْنِهِ صُلْباً، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِيْنِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِيْنِهِ**»[1]، والمراد بالدين هنا الإيمان الذي يثبت عند نوازل البلاء، فإن المؤمن يبتلى على قدر ما يحمله إيمانه من وارد البلاء، قالوا: فالبلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع من أشدِّ البلاء، فإنه لا يصبر عليه إلا الصديقون، وأما البلاء الذي جرى على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها، فالصبر عليه لا يتوقف على الإيمان، بل يصبر عليه البر والفاجر لا سيما إذا علم أنه لا معول له إلا الصبر، فإنه إن لم يصبر اختياراً، صبر اضطراراً، ولهذا كان من ابتلاء يوسف الصديق ﷺ بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الجب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه، وابتلائه بمراودة المرأة له، وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها، وهي الداعية له إلى ذلك فرق عظيم، لا يعرفه إلا من عرف مراتب الابتلاء، فإن الشباب داع إلى الشهوة، والشاب قد يستحيي من أهله ومعارفه من قضاء وطره، فإذا صار في دار الغربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام، وإذا كان عزباً كان أشد لشهوته، وإذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشد، وإذا كانت جميلة كان أعظم، فإن كانت ذات منصب كان أقوى في الشهوة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).



فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضاً للطلب، فإن كان الرجل مملوكها، وهي الحاكمة عليه الآمرة الناهية له كان أبلغ في الداعي، فإذا كانت المرأة شديدة العشق والحب للرجل قد امتلأ قلبها من حبه، فهذا الابتلاء الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول، بل هو من جنس ابتلاء الخليل ﷺ بذبح ولده، إذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة ومفارقة حكم الطبع، وهذا بخلاف البلوى التي أصابت ذا النون صلوات الله وسلامه عليه، والتي أصابت أيوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن هذه هي النكتة التي من أجلها كان صالحو البشر أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب ودواعي النفوس والشهوات البشرية، فهي صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق، وأما عبادات البشر فهي مع منازعات النفوس وقمع الشهوات.

عصرة التوبة

وهاهنا دقيقة قلَّ من يتفطَّن لها إلا فقيه في هذا الشأن، وهي أن كل تائب لا بد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه، فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره، فأكثر الخلق رجعوا من

التوبة ونكسوا على رؤوسهم لأجل هذه المحنة، والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة، فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم، وهذا الأثر الحاصل بالتوبة لمَّا كان من أجلِّ الأمور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن، ليتميز الصادق من الكاذب، وتقع الفتنة، ويحصل الابتلاء، ويتميز من يصلح ومن لا يصلح، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلاً أفضت به إلى رياض الأنس وجنات الانشراح، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه، والله الموفق لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

والمقصود أن هذا الفرح من الله تعالى بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأتِ نظيره في غيرها من الطاعات ـ دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله، وأن التعبد له بها من أشرف العبادات، وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها.

الصبر طريق للكمال

الصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل، ولهذا



جاء في دعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ والعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[1]، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة ـ أعني اسم «الصبر» ـ لما تخلَّف عنه، قال النبي ﷺ «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[2]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين غشي عليه: «أدركناه بالصبر».

أسباب الصبر عن المعصية

الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله تعالى إنما حرَّمها ونهى عنها صيانةً وحمايةً عن الدنيا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله عز وجل، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه وبمسمع ـ وكان حيّاً حييّاً ـ استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب رجعت إليه أو مثلها، وإن أصرَّ

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوبُ تزيل عنه نعمةً نعمةً حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، قال بعض السلف: «أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة»، وقال آخر: «أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن».

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم، تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

السبب الرابع: خوف الله تعالى وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

السبب الخامس: محبة الله سبحانه، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعصيته، فإن المحبَّ لمن يحبُّ مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

وهاهنا لطيفة يجب التنبُّه لها، وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر، ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها، ويفتِّش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرُّدها من الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله تعالى وتعظيمه، وتلك من أفضل



مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميَّتها أن تختار الأسباب التي تحطها، وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقرها، وتسوي بينها وبين السفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها، والضرر الناشئ منها.

من عرف الله أحبه ولا بد

فإن من عرف الله تعالى أحبَّه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله تعالى أبداً، ولهذا قال تعالى حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فدل على أنه لا حزن مع الله، وأن من كان معه فما له وللحزن؟! وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصَّل الله له فعلى أي شيء يحزن؟! ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟! قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف، ونقصان الخوف من الله هو لنقصان معرفة العبد بربه، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتدَّ حياؤه منه وخوفه له وحبُّه له، وكلما ازداد معرفةً ازداد خوفاً وحياءً وحبّاً.



الإيثار مع الخلق والخالق

الإيثار إما أن يتعلَّق بالخلق، وإما أن يتعلَّق بالخالق، فإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً، ولا يسدُّ عليك طريقاً، ولا يمنع لك ورداً، فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان، وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه، فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين، وما يعود بصلاح القلب، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فأخبر تعالى أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وُقِي الرجل الشحَّ به كان من المفلحين، وهذا إنما هو في فضول الدنيا لا في الأوقات المصروفة في الطاعات، فإن الفلاح كل الفلاح في الشحِّ بها، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عرياناً مفلساً.

فإن قيل: فما الذي يسهِّل على النفس هذا الإيثار، فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟

قيل: يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.



والأخلاق ثلاثــة: خلق الإيثــار: وهو خلق الفضــل، وخلق القسمة والتسوية، وهو خلق العدل، وخلق الاستئثار والاستبداد، وهو خلق الظلم، فصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا ســبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمــن يؤثرها، وصاحب الاســتئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشحِّ وكراهته له.

الثالث: تعظيــم الحقوق التــي جعلها الله تعالى للمســلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها.

والإيثار المتعلِّــق بالخالق أجلُّ من هذا وأفضــل، وهو إيثار رضاه على رضا غيره، وإيثار حبه على حــب غيره، وإيثار خوفه ورجائــه على خوف غيره ورجائــه، وإيثار الطلب منه والســؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره.

وعلامة هذا الإيثار شيئان: أحدهما: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه. الثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه، فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤنة هذا الإيثار شــديدة.. فالمحنة فيه عظيمة، والمؤنة فيه شــديدة، والنفس عنه ضعيفة، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه. والذي يســهله على العبد أمور: أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلســة.. الثاني: أن يكون إيمانه راسخاً ويقينه قوياً، فإن هذه ثمرة الإيمان ونتيجته. الثالــث: قوة صبره وثباته، فبهذه الأمور الثلاثة ينهض إلى هذا المقام، ويسهل عليه دركه.



محكّات قلوب المحبين

وبالجملة فقلب المحب دائماً في سفر لا ينقضي نحو محبوبه.. ومحكُّ هذا الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه، وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه، فإنه إذا استيقظ ورُدَّتْ إليه روحه رد معها ذكر محبوبه الذي غاب عنه في النوم.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان بها، يوزن إيمان الرجل، ويتحقق حاله ومقامه، ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب، ولا ألذ لقلبه، ولا أنعم لعيشه منها إن كان محباً، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه.. فلا شيء أهم إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسخ وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: «**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»(١).

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحبَّ الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥).





الفهــرس

كتـاب
مدارج السالكين









كتاب
الوابل الصيّب





كتاب إغاثة اللهفان

كتاب
الجواب الكافي







كتاب
طريق الهجرتين وباب السعادتين



